عنترة بن شدّاد

١٣



دار المعارف بمصر

عنترة بن شدّاد

عنترة بن شدّاد

١٣

تأليف

حسن جوهر

محمد أحمد برانق

أمين أحمد العطّار

ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

١

الحادث العجيب الذى أدهش غمرة وغصوبا ولون الظلام هو أنه أقبل على الجيش عشرة فرسان يقدمهم فارس فى ثوب من ديباج وعمامته مطرزة بالذهب ، ومن خلفه غلام كالبدر حسناً وجمالا ، فدخل فى صفوف الجيش حتى التقى بقائد جيش همام ، ولما سلم عليه ألقى فى أذنه سراً فأجابه سمعاً وطاعة ، وأخذه وأخذ من حواليه مائتين من خيار الفرسان ورجع بهم من حيث أتى بعد أن نصب قائداً من فرسان همام مكانه . فأحضرت غمرة فى الحال غوار بن دينار وسألته عن ذلك فقال : ورب البيت يا غمرة لا أدرى عن هذا شيئاً ، وأما عنترة وصفوان فقد أخبرت أنهما فى الأسر عند همام وهما حيان يرزقان ، واستمر القتال على أشده . ورأت غمرة فى اليوم الثانى الرسول نفسه قد ألقى فى أذن القائد كلاماً ثم أخذه وأخذ معه مائتين من وجوه الفرسان وأعيانهم ورجع بهم من حيث أتى فزادت حيرتها وتحدثت إلى ابنها غصوب فى ذلك فقال : ما المسئول عن ذلك بأعلم من السائل ، ولكنى أظن هذا الرسول عمى شيبوبا ، فقالت : وما الذى جاء بعمك على هذه الحال ؟! ! لا بد أن يكون همام قد حصل فى داره شيء ، فأرسل فى سحب هؤلاء الجنود بالقدر الذى يحتاج إليه ، ولكن ذلك لا يمنعنا

من الكفاح وإن مر مذاقه ، غير أن الرسول لا يزال يتردد على الجيش ويأخذ معه القائد وعدداً من الجنود حتى لم يبق من جيش همام إلا ثلثه ، وكان من الضعف وقلة الخبرة بالقتال بحيث يسهل أن يكون طعاماً للسيوف .

أثار هذا الرسول وعمله قلقاً فى نفس ابن عم الملك غوار فقال لبنى عمه : إنى فى خوف على الملك همام من عنترة ، وإن لم يكن الأمر كذلك فمن هذا الرسول الذى يأتى كل يوم ويأخذ عددا من جيشه حتى كاد أن ينفد ، وقد عزمت أن أقبض على الرسول إذا عاد وأغاظ عليه فى القول لنعرف منه الغرض من عمله هذا ، وبعد ذلك ندبر الأمر على أساس من صالحنا ، فقالوا : نعم ما رأيت .

وكان غصوب قد عظمت الحيرة فى صدره من هذا العمل ، فقالت أمه : لا بد أن يكون أبوك قد قتل هماماً وحكم بلاده ولا يزال يرسل فى استدعاء جنوده لأنهم دخلوا فى حكمه ، فقال : لو كان الأمر كما تقولين ما تركنا هذه المدة التى قاسينا فيها أهوال الحرب وأخطارها ، ولأرسل إلينا أخاه شيبوبا فبشرنا وطمأننا ، فقالت أمه : وإنى أخشى يا بنى أن يكون همام جاداً فى أن يجمع جموعه ليغزونا من خلفنا وليجعلنا محصورين بينه وبين جيش غوار ، فقال : حينئذ وجب علينا أن نأخذ الحيطة ونهجم على الأعداء هجمة عنيفة عسى أن نهزمهم ونخلص ميسرة وعروة ، وقاموا إلى

جنودهم واستأنفوا قتالا مريراً فى حلك الظلام فكان وبالا على الأعداء ، وما طلعت الشمس إلا وهم مشردون هاربون ، وقد تركوا خيامهم وأموالهم فغنمها بنو عبس وخلصوا من الأسر عروة وميسرة ، وقال غصوب : هيا بنا نتبع المهزومين خشية أن يخبروا هماما بما جرى لهم فيعجل بقتل والدى وصفوان بن لون الظلام .

وما لبثوا أن رأوا فى سيرهم غبرة خفيفة تسير الهوينى ، فظنوها من عسكر للملك همام ، وأسرع غصوب بجواده إليها ، وبعد قليل رجع ومعه فارس يحادثه ويضاحكه ومن خلفه عشرة فرسان ، فعجبت غمرة وما زالت ترقب حركاتهم حتى وصلوا إليها ، وكان هذا الفارس شيبوبا وهو الرسول الذى جعل يأخذ جنود همام يوماً بعد يوم حتى لم يبق منه إلا الثلث الذى لا غناء فيه ، فاطمأنوا وسأله عروة عما وراءه فقال : ليس ورائى إلا كل سلامة وخير ، فإن أخى الآن أعز رجل عند الملك همام ، وهو الذى يحكم البلاد وأمره نافذ فى الأرض ذات الأعلام . فقالوا : حدثنا عن غيبة أخيك وصفوان وما فعلته لهما ، فقال :

ذهبت إلى جيش غوار وجعلت أتجول فى أنحائه لعلى أسمع حديثاً عن أخى فلم أقف له على خبر ، وعرفت أن القوم يجهلون أمره ؛ وبينما أنا عازم على مغادرتهم إذ جاءهم رسول همام يبشرهم بأسر أخى وصفوان فتبعت الرسول حتى دخل على همام فى خيمته ، ودخلت مع الداخلين إلى

مجلسه ، فوجدت أخى جالساً على يمين همام ، وصفوان على يساره ، وليس فى الحاضرين من لا يدين لأخى بالطاعة والإكبار ، فاستقبلنى فرحاً ، وأجلسنى إلى جواره ، وقص علىّ قصة المكيدة التى دبرتها أعجوبة الأنام لأسره ، وما فعله به همام من تعذيب ، ثم قال : ولكنى استطعت بقوتى أن أقطع قيودى وقيود صفوان ، ثم هجمنا على قصره فقتلنا عبيده وحرسه وحبسته فى قيود الأسر وهممت أن أقتله ، فندم على ما فعله وطلب إلىّ العفو عنه ، وأقسم أن يكون لى مطيعاً ، وقال : وإن أردت أن يقسم معى كبار دولتى وأعيانها وجميع من له نفوذ فيها فعلت ، فأجبته لماطلب فأقسموا وعاهدوا أن يكونوا فى طاعتى . وهذه قصتى ، فحدثنى عن رجالى وقوادى، فقلت : كان النصر حليفهم ، ولكن غيبتك غاظتهم وخاصة بعد المدد الذى أرسله همام إلى غوار ، فقال : وماذا ترى أن نفعله فى هذا المدد ؟ فقلت تأمر هماما أن يرسل معى عشرة من خدمه وأذهب إلى جيشه فى زى رسول منه ، وأنا أحضر إليك كل يوم طائفة منهم ليكونوا فى طاعتك ، وبذلك أمر الملك همام ، وكذلك جعلت أسحب من جيشه مائتين كل يوم حتى بقى ثلثه الذى لا نفع فيه ، ثم قال أخى : ادخل قصر همام وأحضر ابنته أعجوبة الأنام ، فلما كنت فى القصر بين نسائه وجدت أمها تطيل النظر فىّ وكأنها تطبق أوصافى على رجل فى خيالها ، أو تقرأ فىّ أوصافاً لرجل تعرفه ، فلما هممت بأخذ ابنتها قالت : ألست شيبوبا ؟ فقلت :

بلى ! فأمرتنى بالجلوس ، فجلست وأنا حائر إذ عرفتنى وذكرت اسمى بعد أن أطالت فىّ النظر ، وقلت : ماذا تريدين ؟ ! فقالت : أنت ابن شامة، ولك أخ يسمى جريرا ، وجرت فى عينيها دموع تنم عن حزن قديم كمين . ثم قالت : وأين أختى وأمك شامة ؟ وبكت ثم قالت : أنا خالتك سعدى وجرى علينا من الحوادث كيت وكيت ، وأرسلنا الخيل فى طلبكم ولكنها لم تدرككم فرجعنا والحزن يغمرنا ولا تزال قلوبنا فى حسرة وأسف عليكم ، وكيف حال أختى شامة؟ وكيف دخلتم هذه الديار؟ فقلت: أختك شامة تدعى من وقت أسرها زبيبة ، ودخلنا هذه الديار بسيف أخى وابن أمى عنترة ، ثم قصصت عليها قصة دخولنا ديارها فقالت : وعنترة هذا أخوك ؟ ! فقلت نعم ، فقالت : الحمد لله الذى حول هماما عن قتله ، إن هماما هذا هو الذى كنت تلعب معه على الغدير فى صغرك وضربته من أجل الغزالة ولولا أننا أدركناك فى غضبك لأغرقته فى الغدير . قال شيبوب : فلما عرفتها قمت إليها وقبلت يدها ، ثم استأذنتها أن أذهب إلى عنترة لأخبره بكل ذلك ، فذهبت إليه وأخبرته ، ثم أقبلت على همام فقبلت يده وقلت : ألست شهاباً ؟ فحدق فىّ النظر وقال : أنت شيبوب ! ! وضمنى إلى صدره ، وعرفته أن عنترة هذا أخى وابن شامة أخت زوجك سعدى ، وشاع ذلك الخبر فى بنى عبس وأن غوارا عديل همام ، فأحضروه إلى شيبوب وفكوا قيوده وسأله شيبوب فقال : ألا تعرفنى ؟ فقال : لا أعرفك تماماً ، ولكن كان لى أولاد عم

أصغرهم سناً أشبه الناس بك ويدعى شيبوبا والأكبر يدعى جريرا فقال شيبوب : ومتى كان عهدك بهم ؟ فقال : منذ ثلاثين سنة ، وأمهم شامة، وقد أسرهم العرب ولا ندرى من أمرهم شيئاً . فقال : أنا شيبوب ، فقام إليه وضمه إلى صدره وبكى بكاء أب لقى ابنه بعد طول غيبة ويأس من لقائه، وفى الحال أطلق بنو عبس الأسرى من جيش غوار هذا ، وأعلمهم غوار بما جرى ، ثم ساروا جميعهم إلى عنترة فأبدى أسفه لما حصل منه لهم معتذراً بجهله صلة القربى وأن هذا قضاء الله الذى لا مرد له . وبعد أن اطمأنوا وأكلوا وشربوا قال عنترة لهمام : إن صفوان ابن الملك لون الظلام الذى حالفنا وناصرنا قد تربى مع ابنتك أعجوبة الأنام ، ولا يزال حبه إياها فى صدره من قديم الزمان وأود أن تزوجها منه وتتخذه ابناً لك ، فهو فتى نجيب ، وأبوه لون الظلام ملك حسيب نسيب ، فقال همام : ذلك خير فهو فارس ماهر ، وأبوه يمت إلينا بصلة القربى ، وتم الزواج ، وأقيمت له الولائم والأفراح وأقاموا بعد ذلك عشرين يوماً ، وفى اليوم الحادي والعشرين أبدى بنو عبس عزمهم على الرحيل ، وإذا بحاجب دخل على همام ، وأسر فى أذنه كلمات ظهر الغيظ منها على وجهه ولكنه أجاب بالسمع والطاعة ، وأمر أن تعبأ أكياس الذهب وغيرها من الأموال ، فسأل عنترة عن ذلك ، فقال : هذا خراج ندفعه كل سنة إلى الملك صاحب قلعة الدينار ، فاغتاظ عنترة وقال : كأنك لست ملكاً على هذه الديار ؟ !



تعارف الأقارب بعد التناكر والتحارب

فقال : أنا نائب الملك فيها ، فقال عنترة : عجل برد الأموال إلى أماكنها ، ولن أبرح هذه الديار حتى تكون ملكاً عليها والحاكم بأمرك فيها ، لا ينازعك فيها أحد ، ثم التفت إلى رسول الملك وقال له : ارجع إلى صاحبك وقل له : إن عنترة يأمرك أن ترد جميع الأموال التى أخذتها من همام فى السنوات الماضية ، وإن لم يفعل ما آمره به فسأغير عليه فأنزع الملك من يده ، بعد أن أخرب دياره وأقتله ، فقال الرسول : لن أستطيع العودة إليه بغير المال ، فأجابه عنترة بقطع رأسه ، فقال همام : إنه ملك جبار وفى قبضته أهل السودان وهم كثيرون لا يحصيهم عد ، وإنى أتوقع الخراب والدمار بعد أن يعرف نبأ رسوله هذا فهو ملك لن يغلبه أحد ، ولن يستطيع أن يقف فى وجهه إلا النجاشى ملك الحبشة ، فقال عنترة : سترى مصير هذا الملك الذى ملأ قلوبكم خوفاً ورعباً وجعلكم تدينون له بالطاعة وتظهرون أمامه بمظهر الصغار والذلة ، ثم ربط الرسول المقتول على جواده وسلمه إلى أصحابه الذين كانوا معه ، وقال لهم عنترة : اذهبوا إلى ملككم بهذا المقتول وبلغوه أن عنترة فى انتظاره ليعجل بقتله وتشتيت رجاله وتخريب دياره ، فسار أصحاب الرسول وهم فى عجب مما رأوا ، وبلغوه ما حصل ، وكان جباراً لا يرعى ذمة ولا عهداً ويفتخر بمعصيته رب الأرض والسماء ، وله ولد يسمى قاصم الأعمار أنكر على أبيه ما هو فيه من استهتار بالخلق وتجرؤ على معصية الخالق .

٢

وكان عنترة قد أقسم برب الكعبة أنه لا يبرح هذه الديار حتى يلقى النجاشى وينكل به تنكيلا مريراً ، فكتب على نفسه بذلك أن يحارب ملكين يبغيان قتله وسحق جنوده ، وهما صاحب قلعة الدينار لأن عنترة قتل رسوله إلى همام ، وحرضه على أن يرفض دفع الجزية السنوية ، والنجاشى ملك الحبشة لأنه سمع عن عنترة وعما فعله بتلك الديار ، وأن نفوذه يمتد من بقعة إلى بقعة ، فغاظه ذلك ، وأصر على أن يقتله حتى لا يكون له شريك من عرب الحجاز فى السطوة وامتداد النفوذ . كل ذلك يعمله عنترة وهو هو فى إصرار كالقضاء وثبات كأنه الجبال الراسيات ، وأهل تلك الديار يرتقبون فى حذر وخوف ما يكون .

وزاد النجاشى قوة على قوته أن كان فى جيشه فارس عملاق يسمى « زنجيرا » أوتى بسطة فى الجسم، وصوتاً كالرعد ، واشتهر بخيانة الرفيق ، وقطع الطريق ، ونهب الأموال ، وقتل الأنفس ، فخاف منه القريب والبعيد وهو ابن جبار من العمالقة يدعى « عراف » كان قد اتخذ له جزيرة فى البحر مقاماً ومأوى ليكون آمناً على نفسه أن يغتاله أحد إذ كان كابنه لا يتحرج من خطيئة أو إثم أو خيانة أو عدوان ، فخوف الناس وأزعج أمنهم ، فطلبوا من والد النجاشى أن يريحهم منه فكان يقهر جيوشه ورأى

نفعه فى مصالحته فتزوج من بنات الحبشة ، ورزق بابنه زنجير هذا ، ولما جلس النجاشى على عرش أبيه سار على خطته ، وغالى فى إكرامه ، ثم تحرك الغدر فى نفسه ، فعزم أن يقتله وهو فى صيده ، ولكن الله لم يمكنه من ذلك ، وأوقعه فى غدره ، وذلك أنه كان ينام فى جزيرته فجاءته دابة من دواب البحر فى منتصف الليل وابتلعته وكان ابنه زنجير قد بلغ من العمر عشرين سنة ، فلما انتظره على عادته ولم يحضر ذهب إلى الجزيرة وجعل يبحث ويفتش لعله يجد له أثراً ، فما عرف عنه خبراً ، فظن أن إحدى دواب البحر طلعت عليه وهو نائم فابتلعته ومضت ، وقام مقام أبيه وكانت هيبته أعظم ، وقد عرف زنجير أن للنجاشى بنتاً يقال لهامنار السناء وهى بديعة الحسن جميلة ، فتعلق قلبه بها وخطبها من أبيها علانية ، فاستشار ذوى الرأى من خاصته فأشاروا عليه أن يزوجه ويتخذه رئيس جنده ، فزوجه منها ، ورزق منها كثيراً من الأولاد وكذلك كان زنجير عدة النجاشى وقوته ورمحه المصوب إلى صدر أعدائه .

خرج عنترة فى جنده إلى النجاشى وبعد مسيرة يوم وراحة ليلة بان لهم غبار جيش قادم ، فقال عنترة : لا أظنه إلا للنجاشى وفيه العملاق زنجير، وبعد ساعة التحم الجيشان وتطايرت الجماجم وأذيق جيش النجاشى الذلة والهوان وذاع صيت عنترة ففزع النجاشى وفرسانه منه ، واستمر القتال يومين ولا تجد جيوش النجاشى إلا انكساراً ودحوراً ، فقال زنجير

للنجاشى : لا تنفعنا هذه الحروب ، وسأطلب مبارزة عنترة لأقتله فيضعف جنده ، ويسهل علينا قهرهم ، وكذلك سولت له نفسه ، وكذلك أعلن عنترة فى جنده أنه سيبارز زنجير فى غده ، وفى الصباح كان زنجير فى الميدان على جواده ، وقد أراد أن يظهر للطائفتين مبلغ قوته فجرى بجواده هنا وهناك ثم ضغط عليه برجليه فنفق ، ثم نادى رجاله أن يأتوه بجمل فلما برك فى الميدان وضع يده على سنامه وأمرهم أن يخزوه بسهامهم ففعلوا ولم يستطع الجمل حراكاً ، ولكنه جعل يرغى ألماً وتوجعاً ، ثم أمسك رقبة الجمل بيديه ورفسه برجليه فقلعها من جسمه ، فقال شيبوب لأخيه : ما أظن هذا الفارس بشراً إن هو إلا شيطان مريد . وإنى خائف عليك من سطوته ، فماذا ترى؟فتبسم عنترة ضاحكاً من قول أخيه وقال : سيريك عنترة ما هو فاعل بشيطانك المريد ، وبرز إليه فرسان من جيش عنترة متحمسين ولكنه قتلهم ، وأسر غصوبا وميسرة ، ووضعهما تحت فخذيه واستمر يقاتل بقية يومه . فذهل جيش عنترة وساورهم الخوف على غصوب وميسرة ، وظنوا أن عنترة سيلحق بهما أسيرا .

أما عنترة فقد أخفى حزنه على أولاده فى صدره ، وقال : لقد هممت أن أبرز إليه وأدحره ولكنى خشيت أن يقول ما برز إلىّ عنترة إلا وأنا متعب ، وربما صدقه الناس فأصبح لى معرة ، وسيجد منى فى البصاح ما لم يخطر له على بال ، ولما جاء الغد برز زنجير ونادى : أين فارسكم عنترة ؟!



عنترة يبارز زنجير ويقتله

كيف يمنع الملوك أن تعطى ماعليها من خراج فإذا جاء الخوف توارى ؟ !
ومالبث أن وجدعنترة على جواده أمامه ، وقال : ما أخرنى إلا أن أجلك لم يكن قد حان واليوم آخر أيامك من دنياك ، ولهذا ساقنى الرب إليك ، حتى تكون موعظة لمن بعدك من الغادرين العادين ، فقال : ارتقب أسرك ، وسوقك مهاناً إلى أبنائك لأقتلهم على مشهد منك ، ثم أعذبك العذاب الأليم قبل أن تلحق بهم فى آخرتهم ، وبدأت المبارزة بينهما والناس فى ذهول مما يرون ، فكم برق نجم الأمل ! وكم غابت شمس الرجاء ! وكم بدا لهم شبح الموت كاشراً عن أنيابه ! وكم اختفى شبحه وهم يعلمون أنه يراهم ولا يرونه ! ومضت سبعة أيام متواليات ولا يقدر أحد منهما أن يغلب صاحبه وفى اليوم الثامن أرهقه عنترة ، وأغلق منافذ الأمل فى وجهه ، ثم أعجله بضربة من سيفه أسقطت رأسه قائلا : خذها من فارس يعرف لرب البيت عظمته ، ولا يخشى أحداً غيره وبقى زنجير على جواده يلوح بسيفه بعد أن سقط رأسه ، ولهذا اعجب عنترة وقال : ما رأيت مثل زنجير فى القتال. وكان النهار قد ولى فرجع النجاشى إلى جيشه و بات خائفاً على أبنائه .

وفى الصباح بادر عنترة إلى الميدان وطلب المبارزة ممن يريد ، فلم يتقدم من جيش النجاشى أحد ، وقالوا : دعك من المبارزة وخذها حملة شاملة ، وقامت بينهما ملحمة عنيفة أسر فيها النجاشى بعد أن فنى أمامه كثير من جنده ، وانتهت بفرار الجيش مهزوماً كئيباً ، وبعد أن استراح

عنترة فى خيمته أمر أخاه شيبوبا أن يحضر إليه النجاشى ليسأله عما فعله بأولاده ، فلعله أبقاهم فيتخذه فداء لهم ، فقال شيبوب له : قم يا ملك الحبشة إلى عنترة ، فقال : وماذا يريده منى ؟ فقال : نريد أن نجعلك فداء لأولاده ، فقال : سمعاً وطاعة ، وسأل النجاشى شيبوبا وهو فى طريقه إلى عنترة قائلا : من تكون من عنترة ؟ فقال : أخوه وابن أمه ، وأمى زبيبة من هذه البلاد ، وأبى من هؤلاء السودان ! وأما عنترة فأبوه شداد العبسى ، فقال : وما أتى بكم إلى هذه البلاد وأنتم من أهل الحجاز ؟ ! فأخبره بقصة غمرة وزواج أخيه منها ، وأنها ولدت غصوبا . وأنه جاء ليثأر لها من أهل السودان ، وأطلعه على القصة برمتها ذاكراً أصوله وفروعه ، فقال : وأنت أمك شامة أخت سعدى زوجة الملك همام ؟ ! فقال : نعم ، فعجب النجاشى وقال : وأم الملك همام عمتى ، وشامة أمك ابنتى ، والملك غوار يمت إلىّ بالنسب القريب . فقبله شيبوب فى جبهته ، ولما كانا أمام عنترة قص عليه قصته ، فقام إليه عنترة وقبل رأسه وقال : كل الذى كان من قضاء الله ، ولم يكن لنا فى اجتنابه حيلة ، وأرسل النجاشى فى الحال رسلا من الأسرى لإطلاق سراح غصوب وميسرة وإحضارهما مكرمين ، وهكذا أراد الله أن تتبدل الحال غير الحال ، وينشر السلام أجنحته على الأمتين ، وأن تتعاهدا على الولاء والإخاء والمعونة الصادقة ، ثم ودعه النجاشى بعد أن لبث فى دياره عشرين يوماً فى أهنأ معيشة وأعز

مقام ، ومنحه كثيراً من الهدايا ، وحمله كثيراً من الأموال ، ورغب صفوان بن معدان أحد أخواله أن يصحبه ليقيم فى دياره ويكون له خير صديق وعون فابتسم عنترة وقال : لا أرى فى مسيرك معى الآن حاجة ، فقال شيبوب : يا أخى ، لابد من أن يصحبنا حتى يعلم بنو عبس أننا من بيت ملك كبير ، فاستحسن عنترة رأى أخيه ولبى رغبة صفوان ، ورجع بنو عبس إلى وطنهم غانمين ، ومروا فى طريقهم بصاحب قلعة الدينار ، وصاحب الأرض ذات الأعلام ، وغوار بن دينار ، ولون الظلام ، وكانوا يمنحون من أولئك خيلا وإبلا وأقمشة وذهباً وفضة وخدماً وعبيداً ولما وصلوا ديار بنى قضاعة مرضت غمرة فأقاموا فيها حتى تشفى وتبرأ من مرضها ولكنها ماتت بعد عشرة أيام من نزولهم ، فدفنوها فى بلادها ، وأقاموا لها مأتماً سبعة أيام ، ثم ارتحلوا ، وقد حزن غصوب عليها حزناً شديداً ، وكانوا قد سلموا بلادها إلى ميمون بن رحمون ونصبوه حاكماً عليها ، ثم قصدوا أوطانهم حتى أشرفوا على أرض الشربة والعلم السعدى ، فأمر عنترة أخاه شيبوبا أن يسبقهم إلى الديار ويبشر القوم بقدومهم ، فذاع النبأ فى الأحياء وهبوا رجالاً ونساء وركباناً ورجالا وفيهم قيس بن زهير ، واستقبلوهم بالمزاهر والدفوف والزغاريد والأناشيد استقبالا حماسياً رائعاً ينم عن محبتهم لعنترة ، وإعظامهم لقدره ، ولكن ربيعا وعمارة ومن على شاكلتهما خارت منهم القوى ، وأظلمت الدنيا فى وجوههم ، واشتعلت بنار الحقد أكبادهم ، وما استطاعوا أن يظهروا

شيئاً مما فى نفوسهم ، وسايروا القوم فى أفراحهم على الرغم من أنوفهم ، وكذلك الحقود يصلى نفسه ناراً حامية بينما الناس فى جنة نعيم من صفاء النفس ومحبة الناس .

وقد جعل عنترة الهدايا والأموال التى جاء بها لقيس وأقاربه وللفرسان وبنى عبس وبنى زياد وللأيتام والفقراء ، وكذلك نفس عنترة بمغانمه على كل بيت فقيراً كان أو غنياً ، وبينما هم فى مقامهم هانئون إذ أقبل رسول إلى صفوان فقال له : إن الملك هماما مريض وهو يسلم عليك ويدعوك إليه ويخشى أن يحين أجله قبل أن تحضر إليه فيضيع الملك من يدك ، فأذن له عنترة ومنحه هدايا تليق به ورحل هو ورجاله .

وقد وفد على عنترة كثير من المهنئين من أمثال ابن أخته الهطال ، وعمرو بن معد يكرب ، ومعه هدايا سنية ، فأكرمه عنترة ومنحه وهو يودعه أضعاف هديته . وفى أثناء عودته قال لأصحابه : هيا بنا إلى بنى كنانة لنغزوهم ونظفر بشىء من أموالهم ، فلا يليق بنا أن نعود إلا بما ربحناه بسيوفنا ، وكان معه خمسون فارساً ، فبعث عشرة منهم بالهدايا إلى الديار ، وصحبه أربعون إلى بنى كنانة للإغارة عليهم ، فوجدوا فرقة من فرقهم مبعثرة فى أرض واسعة ومعها نوق وجمال وخيل وأنعام ، فقال لصحبه : قد ظفرنا بما أردنا ، فاطلبوا مراعى هذه الفرقة وسوقوا أموالها وعبيدها إلى منازلكم ، وسأتولى حمايتكم والدفاع عنكم ، فطافوا حول الخيام فلم يجدوا فيما طافوا به

أحداً ، فعلموا أن رجال الحى غائبون ، ونظر عمرو فرأى عبدين قادمين من المرعى إلى الحى ، فانتظرهما حتى أقبلا ، وسألهما : أين فرسان الحى ؟ فقالا : ذهب بعضهم لزيارة أقاربه ، وبعضهم خرج للصيد والقنص ، وما بقى إلا قليل منهم ، فماذا تريد ؟ ! ومن أى العرب أنت ؟ ! لعلك غريب وفى حاجة إلى ماء وزاد ؟ ! ! فقال عمرو : قد أتيناكم لنسرق أموالكم ، وإن عارضنا أحد قتلناه ، فسيروا مع صحبى إلى المرعى وسوقوا معهم الأموال ، ولكم عندى مكافأة عظيمة ، وسلامة من الأذى . فقال أحدهما : وكان قد عرفه : يا بن معد يكرب ! لقد خاب سعيك ، وضاع أملك ، وضل رأيك ، فبينك وبين أموالنا نار حامية ، وسيوف مرهفة ؛ فاسمع النصيحة وعجل بالفرار ، وإلا كنت أنت وصحبك طعاماً للطير والعقبان ، فقال : كيف تخاطبنى بهذا القول ؟ ! ولولا أنك عبد ليس فى قتلك مكرمة لقطعت عنقك ، فقال : إننى عبد ولكنى نصحت لك ، والنصيحة نصيحة وإن كانت من وضيع ، ولا يغيب عن ذهنك أن الذهب موطنه الرغام . ولا أزال أنصح لك وأقول : عجل بالفرار ، فقد أبصركم العبيد وربما حملوا خبركم إلى سيدى فجاءكم وأراق دماءكم ، فقال : ثكلتك أمك ، كيف تهددنى وسيفى يجز رقاب الجبابرة العتاة ؟ ! فقال : إن أنت أقمت بعد الذى سمعت فقد ألقيت بيديك إلى التهلكة ، فقال غاضباً : اذهب من وجهى فما أشأم طلعتك ! وما أحوجك إلى أدب

الحديث وحسن الخطاب ! فتركه العبدان إلى الوادى ، وخلياه مع رجاله الأربعين .

أرسل عمرو إلى المرعى ثلاثين يسوقون الأموال ، ودخل هو فى عشرة إلى المضارب فوجد خيمة فى معزل وحولها جماعة من العبيد ، فقال فى نفسه هذه خيمة سيد الفرقة ، ولا بد أن تكون فيها نساؤه ، ونظر من باب الخيمة فوجد فيها فتاة ساحرة فاتنة وهى جالسة تبكى ، وبجوارها عجوز برى الزمن جسمها ، وبيض شعرها ، وهى تسكتها وتهدئ من روعها ، وتقول : أبقى الله حاميتنا فقد أرسلنا إليه فى الصحراء ، وعما قليل تجدينه حاضراً ، ثم رأت العجوز عمرا وهو ينظر إليهم من باب الخيمة فقالت : من أنت ؟ ! إن كنت رجلا ذا نخوة فلا ينبغى أن تمزق حرمة البيوت فى غيبة الرجال ! فقال : اخرجى أيتها العجوز ومن معك من النساء وإلا غرزت رمحى فى صدرك ، ولن أفارق هذه المضارب حتى يأتينى فارسكم لأسفك دمه ، أنا عمرو بن معد يكرب ، فقالت : إن صدقت وانتظرت فلست براجع إلى أهلك ، وعليك من الآن رحمة الله إن كنت من الصالحين ، ثم خرجت هى والفتاة إليه ، فلما رآها شغف بها حباً ، وسار بهما إلى صحبه فوجدهم قد نهبوا الأموال ، فأمرهم أن يركبوا النساء ويسرعوا فى السير وهو من خلفهم ليرد عنهم أعداءهم إن هم أدركوهم . وقالت الفتاة للعجوز : وهم بهما سائرون : يا أمى ، انظرى إلى الوراء فعسى أن تلمحى أحدا من

رجالنا يتبعنا قبل أن يبعلم الأعداء بنا فتطول غيبتنا فقالت : اصبرى يا بنيتى فذلك حكم القضاء ، وربك قادر على أن يدفع عنا هذا البلاء ؛ ثم التفتت فرأت فارساً مقبلا كأنه الريح فقالت : هذا فارس مقبل ولعله أخوك ، فتبينته الفتاة وقالت : إنه السابق اليعمرى وكان شيخاً لواه الزمن ، ولما رآه عمرو قال لمن معه : استمروا فى سيركم وسأقف هنا لأقتل هذا الفارس المقبل إن وجدته يطلبنا ، فقالوا : يحسن أن نمكث معك فربما وجدناه الفارس الذى هددنا به العبد ، فقال : لو كان فارس العبد لأتى إلينا من الأمام ، وسواء أكان الفارس أم غيره فسأكفيكم شره ، فامضوا فى سبيلكم ، وبعد قليل سأكون معكم ، وكان أن قتله وغنم سلاحه وجواده ولحق برجاله ، فبكت الفتاة وقالت للعجوز : ليس لعمرو إلا أخى فلا يفل الحديد إلا الحديد ، ثم شغل بقتال جماعة من الفرسان واستطاع أن يظهر عليهم فرجعوا خائبين ، ولما همّ أن يسير إلى رجاله رآهم راجعين فزعين ، فسألهم عن حالهم فقالوا : أنجدنا أولا ، ثم اسأل بعد ذلك عما أصابنا ، فقد اعترض سبيلنا خمسة فرسان كأنهم ملائكة الموت ، فأخذوا منا الأموال والنساء ، وبطشوا بنا البطشة الكبرى ، وما استطعنا قتالا ولا صبراً ، وفيهم العبد الذى توعدك بفارسه ومولاه ، وشمت بك فقال : لقد نصحتك فلم تستمع لنصحى فذق إنك أنت العزيز الكريم ، فلما رأينا ذلك ورأينا الأرض قد فرشت بفرسان غلاظ شداد لوينا أعنتنا ورجعنا

إليك ، فظهرت على عمرو أمارات التورط والندم ، وقال : لا مخلص لنا إلا أن ندافع عن أنفسنا ، فارجعوا معى لأنزل بهم النكال ، فقالوا : إن فيهم فارساً إن قتلته كفيتنا شره ، وظهرنا عليهم ، فقال : سأكفيكم شره ، ولما رأت العجوز أم هذا الفارس عمرا ورجاله مقبلين قالت له : جاءك أبو ثور ورجاله ، فخذ حذرك ، وإنى لا أعلم سبباً لما أحسه فى نفسى من الإشفاق على عمرو والميل إليه ، فهو يشبه أباك زيدا فى خلقته وملاحته وسعة ما بين كتفيه ، فقال : ربما كان فى الأمر شىء له اعتباره وقيمته وأنت لا تدرين ، وكان ابنها هذا يسمى ربيعة ، وأبوه زيد بن المكدم سيد بنى كنانة ، عرف بالأمانة والوفاء ، ومضى عليه زمن لم يرزق فيه بولد ذكر ، فشكا حاله إلى كاهن فقال له : ليس لك إلا أن تزور البيت الحرام ، وهناك تدعو ربك أن يرزقك أبناً يخلفك ويحيى ذكرك ، ودع عنك كل سبيل غير هذا ، فلما جاء الموسم أخذ بعضاً من الأنعام والغنم وكان بها عند البيت الحرام ، فذبحها ووزع لحمها على الفقراء والمساكين ، ثم مد يده ورفع بصره إلى السماء حول البيت وقال : يا من بسطت الأرض ورفعت السماء ، أتوسل إليك أن تهب لى ابناً تقر به عينى ، وأشد به أزرى ، ويخلفنى فى قومى ، ويوارينى فى حفرتى بعد موتى ، وبات ليلته فى الحرم ، فسمع هاتفاً فى منامه يقول : قد سمع الله دعاءك واستجاب لك ، فقام من نومه فرحاً وانقلب إلى أهله مسروراً ، ثم ولدت زوجه غلاماً جميل

الخلقة يبعث السرور فى نفس من يراه ، وسماه ربيعة ، وأقاموا الأفراح وذبحوا الذبائح وأطعموا الفقراء والمساكين ، وعنى بتربيته حتى بلغ من العمر ثلاثا ، ثم قال لزوجه وكانت ابنة عمه : إنى لأجد فى نفسى رغبة فى زيارة البيت الحرام شكرا لله على ما أنعم ، فقالت : ذلك واجب عليك لربك الذى وهب لنا ربيعة ، فجعل ابنه وأمه فى هودج وسار فى عشرة فرسان شداد لا يرهبون الموت حتى كانوا فى البيت الحرام ، فطافوا به وأطعموا الطعام وأدوا مراسمهم الدينية ثم ركبوا راجعين ، ولقيهم فى طريقهم خمسون فارساً من بنى المصطلق يقودهم وائل بن الضحاك الذى اعتاد الإغارة على قوافل العرب ، فهجموا عليه يبغون الطعن والمغانم ، وبعد قتال عنيف قتل فيه سبعة من هنا وعشرون من فرسان وائل أسرت زوجة زيد وابنه ، وأصيب هو بطعنة فى فخذه أوقعته عن جواده ، فظنوه قد مات منها وتركوه مع القتلى ، ولما رجع الفرسان الثلاثة وجدوه يئن ويتوجع ، فأقعدوه وسقوه ماء ولأموا جرحه ، وأركبوه معهم ورجعوا به إلى الديار فلزم بيته حزيناً كئيباً لفقد ابنه وزوجه ، لأنه لم يعرف من أسرهما ، وحاول بالسؤال معرفته فلم يصل إلى نتيجة ، وكانت له ابنة صغيرة يحبها فتسلى بها ،

كان من نصيب وائل بن الضحاك ربيعة وأمه ، وكانت أبياته على غير المناهل ، وبينما هو عائد بهما إلى بيته لقيه معن بن النضر وكان فارساً لا يطاق ولما وجد أم زبيبة رائعة الجمال رغب فيها فقال : اترك الظعن

وانج بنفسك ، فقال وائل : وهل يترك ظعن من دون قتال ؟ ! فقال : دونك الحرب والقتال ، فقال وائل : الآن أنصفت فى القول ، فدونك وما تريد ، ونشبت بينهما حرب أكلت وائل بن الضحاك فكان قتيلا . وأخذ معن ربيعة وأمه ، وعاد بهما إلى أهله ، وأعد لهما بيتاً مستقلا لا يشركهما فيه أحد ، ثم طلب منها ما يطلبه الرجال من النساء فقالت : اخسأ أيها النذل الجبان ، إنى منك أبعد من أمك فيما تطلب ، فأوجعها ضرباً وهى لا تزيد إلا بكاء وامتناعاً ، فأشار عليه بعض النساء أن يذلها بالخدمة لتنسى ما لها من عزة وكرامة ، فجعلها ترعى الأنعام والغنم ، وعاملهامعاملة العبيد والخدم ، ولبثت على هذه الحال راعية محتفظة بشرفها مدة من الزمان ولم يكن لها أنيس فى وحدتها إلا ابنها فى الخباء وفى الصحراء .

وبينما هما عائدان إلى الأحياء لقيهما عبد يقال له الهجام وسيده يدعى المقدم سيد بنى النضر . فلما استحسن العبد جمالها سألها : من سيدك من العرب ؟ ! ولمن هذا الغلام ؟ ! وهذه الأغنام ؟ ! فقالت : اذهب إلى سبيلك ، ولا تسأل عما لا يعنيك ، فقال : ويل لك ؟ ! كيف تجيبين بهذا القول وأنا الهجام الذى يدخل على الأسود فى غاباتها ؟ ! ثم ضربها على وجهها ضربة قاسية ، فقالت : شلت يمينك أيها العبد اللئيم ، فقام ابنها إليه ، وأمسكه ورفعه إلى السماء بيديه ، ثم ضرب به الأرض ضربة كانت القاضية ، وبلغ سيده نبأ قتله ، فسأل : ومن قتله ؟ ! فقيل له :

قتله غلام بلغ من العمر عشرا ، ولم يقتله بسيف أو رمح ولكنه أمسكه ورفع به يده ثم ضرب به الأرض ضربة قضت عليه ، فأسرع إلى مصرع عبده فوجده قتيلا ووجد الناس من حول ربيعة وأمه ينظرون إلى هذا الغلام الذى قتل العبد دون سيف أو سهام ، وكان الناس بين مصدق ومكذب ، فلما حضر المقدم قال : أحق ما يقوله الناس ؟ ! فقالوا : نعم ! قتل هذا الغلام عبدك من غير سلاح ! فأطال النظر فيه وقال : سيكون لهذا الغلام شأن خطير ، ثم التفت إلى أمه وقال : من مولاك ؟ ومن أى العرب أنت ؟ فقالت : نحن من عرب الحجاز ، أسرنا فى طريقنا ، ومولاى معن بن وائل . فأمر عبيده أن يأخذوهاوابنهاإلى بيته ليكونا عوضاً عن عبده الهجام وسيقت إلى بيته على خوف منها على نفسها وولدها ، ولكنه أمر أن تكرم وتخدم ، لأنها غريبة ومن بيت كريم ، ولها ابن رفع شأنها ، وتبدو عليه مخايل الشجاعة والنخوة تبشر بأيام له بيض ، وضرب لها بيتاً أقامت فيه هى وابنها ربيعة ، وأمر أن يدرب على ركوب الخيل وأعمال الشجاعة والحرب فأحسن تدريبه وأصبح كالصاعقة ، وأحبه المقدم وعلت منزلته عنده .

ذهب المقدم إلى البيت الحرام ومعه أهله وعياله وربيعة وأمه ، فأقام هناك ما أقام ، وأطعم الطعام ، وأعان الفقراء والضعفاء ؛ وفى أثناء رجوعه نزل بأرض النعام ليستريح ، فبكت أم ربيعة بكاء جعل سيدتها تسألها عن مبعث بكائها ، فقالت : ذكرتنى هذه الأرض بالأهل والديار ، وحكت

لها ما أصابها من نائبات ومحن ، ولكن الشدائد لا تدوم ، فقد سرى عنها وذهب حزنها حينما رأت مائة فارس كأنهم الليوث العوابس وهم ينذرون بالويل والثبور إن لم يسلموا إليهم نساءهم ؛ ودارت معركة بين الفريقين أسر فيها المقدم ثم أخذت أم ربيعة ابنها وألقت بنفسها فى أحضان زوجها زيد ، ففرح بها وبابنه ربيعة ، وقصت عليه ما جرى لها وما لقيته من المقدم من كريم العشرة وسابغ المعروف ، فذهب إليه زوجها وشكر له معروفه ، وأطلقه من أسره ، ومنحه هبات سنية من خيل وجمال ، وعرض عليه أن يصحبه إلى دياره ليبالغ فى إكرامه ، فاعتذر وأبى وقال : سبقنى إلى الديار من فر من رجالى ، وربما أذاعوا هناك نبأ قتلى أو أسرى ، ولا بد أن أسرع فى عودتى حتى أطمئن أهلى وقومى ، فودعه زيد شاكراً .

رجع زيد فى أهله ورجاله إلى الديار ، وجعل يعلم ابنه فنون الحرب والضرب والمبارزة حتى فاق أقرانه ، ثم خلف أباه بعد موته فى شجاعته وسلطانه وجعل يشن الغارات حتى جرى له مع عمرو ما قصصناه ، ولنرجع الآن إلى الحديث فيهما .

أخذ ربيعة يجول فى الميدان ويقول : الشجاع من مات كريماً تحت ظل السيوف والرماح ، فلما سمعه عمرو قال لصحبه : إن هذا الغلام أعجوبة الزمان ، ولا إخاله إلا قد اقترب أجله ، فاحموا ظهرى فقد عزمت على قتله وأخذ سلبه ، فأعجله ربيعة بضربة قوية وقع منها مغشياً عليه ،

فلما أفاق قال له ربيعة : قم يا عمرو فما لى فى قتلك غاية أو مغنم ، فإنك أشبه الناس بأبى ، وليس لى دم عندك ، فارجع إلى أهلك واترك محاربة بنى كنانة ، وإلا بؤت أنت وقومك بالخزى والهوان ، فقال عمرو : إن ضرب الحسام أهون علىّ من هذا الكلام ، فقال ربيعة : لك الخيار فإما رجعت وإما قتلت ، فقال عمرو فى نفسه : لا ينفع مع هذا الغلام إلا أخذه غيلة وغدراً ، وسلم عليه وأفهمه أنه راجع إلى أهله ، ولكنه عزم أن يترصده فى طريقه ، ليلقاه وحده وهو بعيد عن أهله وجنده ويأخذه غيلة وغدراً .

سار ربيعة فإذا عمرو قد خرج إليه فى طريقه واعترضه ، فقال ربيعة خنت يا عمرو ، فاستوجبت القتل والضر ؛ فلما رأى عمرو أنه مغلوب أراد أن يفلت منه بالحيلة فقال : ما تريد منى يا غلام ؟ فقال : أريد سلبك ودرعك ، فقال : إن فى ذلك عاراً لى ومسبة ، فقال : وإن لم تفعله فإنك هالك ، فقال : كيف تفعل بى ذلك وقد حملتك على كتفى صغيراً ، وكان أبوك من أحب أصدقائى ؟ ! فكيف تجعلنى أحدوثة عار بين الرجال ؟ ! ! فتأثر ربيعة وعفا عنه ، وتعاهدا على الإخلاص والتعاون ، وألا يخون أحد منهما صاحبه . ورجع عمرو إلى أهله وقد كان لا يصدق أنه ناج من القتل بعد أن بدا منه غدره وخيانته ونقضه عهد التعاون والأخوة وهو مع ذلك متقد غيظاً من تلك الحال ، ورجع ربيعة إلى دياره وقد عرف بالشجاعة والقوة فجاءته الوفود مهنئة بسلامته .

وكان عمرو يقول لأصحابه وهو راجع بهم : إن عاش هذا الفتى فسوف يلقى بنفسه فى مواقف تعظم فيها بليته ، وما نصره علينا إلا الرب القدير بسبب بغينا على الحريم ، فهو ذنب عند الله عظيم ، وما من امرأة بغينا عليها إلا رفعت يديها إلى السماء ودعت علينا أن ينتقم الله منا فاستجاب الدعاء وأنزل بنا هذا البلاء . ولقد كان ظن عمرو صحيحاً ، إذ كان من بين النساء امرأة عجوز من بيت كريم افتقرت وجار عليها الزمان ، ولها ثلاث بنات أبكار ، وكانت متعبدة دينة ، وكانت تذهب كل عام إلى زيارة بيت الله الحرام ، وتطلب من أكابر البيوت زاد بناتها ، وتسمع من مشايخ الحرم صفات محمد صلى الله عليه وسلم وأنه سيظهر فى هذه الأيام بالتوحيد والصدق والمعروف ويكون ظهوره بين زمزم والصفا ، فوقع فى قلبها محبته ، وتمنت أن تدركه لتؤمن به وتصدقه ، فلما رأت بناتها يمشين بين الرجال حافيات واجمات بائسات رفعت يديها إلى السماء وقالت : يا رباه ، بحرمة النبى الهاشمى الذى وصفه الكهان ، وبشروا باقتراب ظهوره ، أن تسلط على عمرو أشد الرجال ، ولا تبلغه فينا أملا ، فاستجاب لها وسلط عليه ربيعة حتى أرجعه إلى أهله مذموما مدحورا .

وسار عمرو فى رجاله حتى غابوا عن أرض بنى كنانة ، ولكن الشيطان وسوس فى صدره ، وحبب إليه الغدر والخيانة فوقف فى أصحابه وقال : لستم منى ولست منكم إن لم تساعدونى على ما أريد ، فقالوا : وما تريد

يا عمرو ؟ فقال : لقد تعلمون أن كأس الهزيمة مرة لا يطيقها حر ، ولا أطيق ما أنا عليه الآن من ذلة وانكسار ، وأريد أن نكمن هنا حتى يسرح القوم إبلهم وأنعامهم ثم نغير عليها ونسوقها أمامنا بقلوب ثابتة جريئة ، ثم نفر بها من هذه الديار ؛ وإن لحقنا ربيعة فسوف أقاتله وسوف أنتصر عليه ما دمت قد خلوت به فى هذه القفار ، فقال له رجل من أصحابه : لقد أردت بهذا لنا الفناء ، ولا تزال ميالا إلى الخيانة حتى تقضى علينا ، وقد صحبتك فى كل مرة فما رأيت أشأم من هذه المرة ، ولولا ما رأت فيك أم ربيعة من شبه بزوجها لكنت الآن من الهالكين ، فقال عمرو : إن القتل أهون علىّ من كلمة يقولها ربيعة فى شأنى ، ولا بد من قتاله وإن غلبنى ، وإن أنا قتلت أو أسرت فاذهبوا إلى عنترة وأخبروه ما جرى علىّ من بلاء وبؤس ، فأطاعوا ولاذوا بمكامنهم إلى الصباح ، ثم أغاروا على الأنعام وساقوها أمامهم ، وساقوا عبيدهم وإماءهم ، وسلكوا بهم سبل البيداء ،

ولحق بهم ربيعة ومعه مفتاح عبده ، فقال عمرو لأصحابه : احموا ظهرى لأسرع لكم بقتله ، ولكن ربيعة لم يمهله فضربه بعقب رمحه فى صدره ضربة قوية نكسته عن جواده ، وأسرع إليه مفتاح عبده فشد وثاقه ثم حمل ربيعة على أصحابه فقتل منهم من قتل ، وأسر منهم من أسر ، وفر باقيهم مهزومين ، ثم رجع ربيعة إلى قومه ومعه الأنعام والرعاة والأسرى ،

فأودعوهم معتقلاتهم فى حراسة العبيد ، وذاع صيت ربيعة فى قومه ، وصار يمشى بينهم مشية المتكبر ، فحسده بعض قومه . وأرادوا له ضيقاً وحرجاً .

وكان فى الحلة رجل يدعى الصالت بن وهب رأى ربيعة يوماً يختال فى ثياب مصرية ، وعلى رأسه عمامة حمراء مطرزة بالذهب ، فقالت العرب : ما أحسن ربيعة ! ! وما أجمل شمائله ! ! فقال الصالت : وما فيه من الحسن وقد تجاوز حده واختال فى مشيته؟ ! فقال أحدهم : إن الذى أسر عمرو بن معد يكرب يحق له أن يزهو ويختال ، وإذا ربيعة قد حضر فرمى النبال معهم وأصاب أكثر منهم فزاد فى عجبه وتفاخره ، فقال الصالت أقلل يا ربيعة من تفاخرك ، فلو أنك ملكت بنت قيس بن مسعود ما مشيت فى الأرض مرحاً واختيالا ، فقال : أشفقت عليك من حسد يأكل صدرك ، ثم تركه إلى شيخ من مشايخ حلته ، له منزلة وخبرة وسأله عن قيس بن مسعود وبنته فقال الشيخ : هى هند بنت قيس بن مسعود الملقب بذى الجدين وسيد بنى شيبان ، وهى جميلة فاتنة ذات فصاحة بالغة وجنان ثابت وشجاعة نادرة ، قهرت كثيراً من الفرسان ، وخطبها إلى أبيها سادات القبائل ، من ثقيف وهوازن ، وسليم وجشم وعامر وكلاب فما رضيت من هؤلاء أحداً لها ، ومن بينهم دريد بن الصمة والعباس ابن مرداس وملاعب الأسنة غشم بن مالك ، وقد انفردت بنفسها فى

البيداء واتخذت لها بين الآكام مضارب وخياما وعبيداً وإماء ، فقال ربيعة : لن أسكت عنها حتى تكون لى زوجاً أو أسيرة وحلف ألا يشرب وألا يفصل فى أمر حتى يملكها زوجة أو أسيرة ، فقال الشيخ : ما لك إليها من سبيل . فقال : سيكون ما أريد بحد سيفى ومعونة ربى ، ثم ذهب إلى أمه وجلس إليها وقال : أخبرينى عن نسبى وحسبى ، فقالت : ما أنت إلا من أكرم حسب وأشرف نسب ، فإن كنت خاطباً فأقدم على من تشاء من بنات العرب ، ولكن يا ولدى إياك أن تطلب هند ابنة قيس بن مسعود ، فقد فضحت غيرك من سادات العرب عند ما خطبوها لأنفسهم ، فقال : وما أردت غيرها ولن أخطب سواها ، ولن أسكت عنها حتى أملكها أو أهلك دونها ، فناولينى درع أبى ، وشدى أزرى بدعواتك الصالحات ، ثم تقلد سلاحه ، وصحب شيخاً من شيوخ قبيلته ، وسار إلى بنى شيبان حتى كان فى ناديهم ، وكان قد غطى بلثامه وجهه ولم يبن إلا عيناه ، فتكلم وأفصح فى مقاله بعد أن سلم وحيا وقال : هل فيكم قيس ابن مسعود ؟ فأجاب : أنا قيس هل لك عنده من حاجة يا ابن الأكرمين؟ فقال نعم يا مولاى ، لقد أتيتك خاطباً ابنتك راغباً فيها ، فقال : ولم لم تكتم أمرك حتى تعالجه خفية ، فإن خطبة البنات ينبغى ألا تكون فى أول أمرها علانية ، وبذلك جرت عادة العرب ، فقال : جهرت بخطبتى لأول أمرها ، لأنى أعلم أنك جليل القدر ولا أجد فى نفسى وحسبى نقصاً

وقصوراً ، فقال : اكشف عن وجهك اللثام لنعرف من تكون ! فكشف عن وجه جميل ينم عن حسب كريم ونسب عريق ، ثم سأله : من أنت أيها الفتى وما نسبك بين العرب ، فقال : أنا ربيعة بن زيد سيد بنى كنانة ، فقال : أكرم بك وبقومك ، فانزل عندنا على الرحب والسعة ، فقد كان أبوك صديقنا ، وقد بلغنا طرف من شجاعتك وكرم سجاياك ، وقد شرفت أرضنا بحلولك فيها ، ولعلك يا ولدى سمعت بخبر من جئت تخطبها وما عرفت به من نفاذ البصيرة وثبات الجنان والمهارة فى القتال وضرب الحسام ، وقلت إنى سأزوجها من ابن أختى هانئ فحلفت ألا تتزوج إلا على ملة التوحيد ، وقد جئتنا الآن ولك منى كل معونة لتحقيق مأربك ، ثم طلب إحدى جواريها وقال لها : اذهبى إلى مولاتك وقولى لها : قد جاءك خاطب هو فيك راغب ، وهو كريم الحسب ، شريف النسب ، رفيع القدر بين سادات العرب ! وإن أباك لم يقض فيك حكماً قبل أن يقف على رأيك ، فانظرى ماذا ترين ؟ قالت ابنته : بلغيه أن المرء مخبوء تحت لسانه ، فليأذن لى فى لقائه لأسمع بأذنى ما يقول ، فقال قيس : قم يا ربيعة ، وادخل على هند فى خبائها ، وعندها عبيدها وإماؤها ، وأحسن فى مخاطبتها والتحدث إليها ، فدخل عليها وحياها ، فردت تحيته ، وأمرته بالجلوس ، وكانت قد اعتادت إذا جاءها خاطب أن تفرش خباءها حشايا ، وتجعل المجالس بعضها أعلى من بعض درجات فإذا جلس

الخاطب فى مكان عال عرفته بعلو منزلته ، وإن جلس فى غيره عرفت وضاعته ، وقد جعلت مجلسها أعلى المجالس ، فلما أمرته بالجلوس جعل ينظر ذات اليمين وذات الشمال باحثاً عن مجلس يليق به فلم ير إلا مجلسها فجلس بين يديها على حشيتها وقال لها : عمى صباحاً ، فقالت : نعم صباحك ونلت الخير والنعم ، ماذا تريد؟ فقال : أريد أن تكونى لى زوجا ، فقالت : إنى لأجد رائحة اللبن فى فمك ، ولا عقل فيك ، فقال : ما بعقلى عيب وما أنا إلا فتى بصير مجرب ، فقالت : أول عيب فى عقلك أن اخترت حشيتى وجلست عليها وهى لا تصلح لك ، فقال : تنكرين جلوسى فى هذا الموضع والذى جئت أطلبه أعلى منه وأرفع ؟ ! فقالت : ومن أين لك هذا الكلام وأنت قريب عهد بالفطام ؟ ! فقال : تعلمته لما جلست على حشيتك ، وأما أننى قريب عهد بالفطام فذلك من فضل ربى فقد علمنى أبى ، وسيفى أنيسى ، وأكرم فى الجدب ضيفى ! فأعجبها حسن حديثه ولباقته وسرعة بديهته ، فقالت : بيّن لنا حسبك ونسبك لنعرف قومك ، فقال : إنا الأفضلون إذا انتسبوا ، والأكرمون إذا وهبوا ، فقالت : هذه صفات قومى الأمجاد ، فقال : وأنت فيهم كالروح فى الأبدان ، فقالت : حياك الله ، فمن أنت من السادات ؟ فقال : من قوم هم فرسان الخيل وخواضو الليل ، فقالت : لعلك من بنى ذهل ؟ فقال : إن لهم عيوباً ليست فى قومى ، فقالت : فمن تكون ؟ قرب الله

محلك وأدنى مزارك ، فقال : من قوم يكرمون الضيف ويضربون بالسيف ، فقالت : لعلك من بنى ذبيان ، فقال : إنهم قوم يكثر فيهم المحل ولا يرجع نازلهم بطائل ، فقالت : لقد أطلت فى وصف قومك فبيّن لنا حسبك ونسبك ، فقال : من قوم هم بعوث الحرب ، وأبطال الطعن والضرب ، فقالت : هذه صفات بنى عبس ، فقال : إنهم أسود الغاب ، ولكنهم اتخذوا حاميتهم عبداً ، وزوجوه بنتاً منهم ليعيشوا فى كنفه وحماية سيفه ، فقالت : ومن أى العرب تكون ؟ فقال : من أشرف العرب ، وأكرم من ضرب الخيام ومد الطنب ، فقالت : لعلك من بنى عامر ، فقال : لعلهم قليلو المال ، فقالت : لقد أكثرت فى القول ، فبيّن : من أنت ؟ ومن قومك ؟ فقال : أنا ربيعة بن زيد صاحب الحسام والرمح ، فقالت : تريد أنك فارس قبيلتك وسيد عشيرتك ؟ ! لا أظن إلا أنك إلى لقاء النساء أقرب ، فقال : ذلك قول من يستوى عنده الخبيث والطيب ، فسرها ما سمعت ورفعت النقاب عن وجهها فبانت له الفتنة من محاسنها ، والسحر من نواظرها . وتألق اللؤلؤ المنثور فى فمها ، ورأى شعراً أسود ناعماً طويلا غطى جسمها ثم قالت : ماذا ترى يا ربيعة ؟ فقال : فتاة منحت جمالا ، وعقلا راجحاً ، ولساناً فصيحاً ، فقالت : ما أنت لى كفء كريم ، وليس لك فىّ مطمع ، وعليك ببنات عمك ففيهن من تكشف عنك همك ، وهن فيك أرغب ، وأنت لهن أوجب وأقرب ، فنهض قائماً وقال : لقد ظلمت

ولغوت ، وستجدينك فى ملك يمينى رضيت أم غضبت ، وغداً ستعلمين علم اليقين ما سيكون ، فقالت : إنك مغرور بنفسك ، كثير التجنى على أبناء جنسك ، وما أظنك تصمد أمامى إذا جردت عليك حسامى ، وربما غرك شبابك فقلت ما قلت . فقال : شباب زانه حكمة الكبير ، فقالت : أما علمت أنى كثيراً ما قهرت فى القتال أعظم منك شجاعة وبأساً ؟ ! فقال : أفّ لهؤلاء الذين تقهرهم ربات الحجال ! ! ولولا مخافتى أن تعيرنى العرب لأنى بارزت البنات لأريتك الآن أنك منى كالحمامة من العقاب ، فاقترحى ما تشائين من المال . فقالت : دع اللجاج وانصرف ما دمت تكره المبارزة ، فقال : كأنك مصرة على مبارزتى ؟ ! فقالت : نعم ، وسأقهرك على مرأى من الأبطال والفرسان . وإن أنت غلبتنى فلك عندى ما تشاء ، فقال : لك رأيك وما قدر يكون ، وخرج غاضباً ، ونادته جواريها فلم يلتفت .

ودخل على أمه فأخبرها بقصته . وأن نار محبتها متأججة فى مهجته ، فقالت : لقد نصحتك وأعلمتك إباءها وتمنعها . فقال : ولن أستطيع سلوها ، فقالت : اصبر صبراً جميلا فإن مع العسر يسرا ، وإياك والبغى فإن مرتعه وخيم ، ولا يحيق نكده إلا بصاحبه ، وامض إليهم فى فرسانك ، ولا تبغ بهم فساداً أوظلماً ، ورب قول أجدى من صول فاختار ربيعة لصحبته أربعين فارساً وتبعه جمع من العبيد ، ولما أشرفوا على ديار بنى شيبان

وجدوهم ينتقلون من محلة إلى محلة ، فصبروا عليهم حتى نزلوا واستقروا وكانت الأرض الجديدة كثيرة المرعى ممتدة الأطراف فلما قرب من مضاربهم قال لعبيد الحى : بلغوا سيدكم قدوم ربيعة فى فرسانه وعبيده ، فلما أخبروه سألهم : وكيف حالهم ؟ فقالوا : كلهم فى أسلحتهم فنهض قيس إلى لقائه ومعه جماعة من وجوه عشيرته ، فسلم وحيا ثم قال : أنت زائر أم جائر ؟ فقال : لا هذا ولا ذاك ! ولكن جئت خاطباً ابنتك لنفسى والأمر بيديك فإما سلام وإما خصام ، فقال : أنظرنى قليلا حتى أبلغها ما سمعت منك وما رأيت . ورجع إلى مضاربه وأرسل إليها عبداً من عبيده ، يبلغها الخبر على حقيقته ، فارتد سريعاً وقال : تقول لك : أيها الوالد ، لا يفزعنك تهديد أو وعيد ، ثم أمرت بإحضاره بين يديها .

فقال أبوها قيس : لا بأس فى ذلك ، وأذن لربيعة أن يستجيب لدعوتها ويذهب إليها فى بيتها ، فدخل عليها فى ساعته ، وسيفه يلمع فى يده ، وحيا قائلاً : عمى صباحاً أيتها الفتاة الكريمة : فقالت : عمْ صباحاً أيها الفتى الكريم ! فيمَ رجعت إلينا مسرعاً وقد علمت رأينا فى مسألتك ؟ فقال : أرجعنى إليك سماحة الوجوه ، ، وكرم الشمائل ، ورغبتى فى القرب ممن أردتها لنفسى عصب الحياة ، وسكن الدهر ، وبسمة الوجود، فقالت : لقد علمت ما لنا فيما أردت لنفسك من رغبة حتى ترضى بالمبارزة على ملأ من قومى وقومك ، وأينا غلب فله أن يحكم فى

صاحبه بما يشاء ، فإن أجبت فدونك والميدان ، وإلا فأقرئنا السلام ، ومنا عليك ألف سلام ، فقال ربيعة : رضيت بما أشرت ، فهيا إلى الميدان ليعرف أينا الفائز المنتصر ، ونهض قائماً من جلسته ، فقالت : وموعدك الغد ، فإن سقطت فى يدى أسيراً وكلت إليك طحن الشعير والحنطة أربع سنين ، ثم جززت ناصيتك وسرحتك . فقال : رضيت ولن أخلف لك موعداً . وكانت قد ملأت عينيها به فألفته معتدل القوام، متناسق الأعضاء، يتفجر جسمه حيوية وقوة ، ويتلألأ وجهه نضرة ، وله ذوائب سود لامعة طويلة تقوس على كتفه ، فقالت : عجبت لك ! كيف ترخى ذوائبك مثل النساء ولا تخشى مبارزة الفرسان ؟ ! فقال : إنى من قوم هم فى الذروة من الشرف ، وقد عرفوا بذلك بين السالف والخلف ، فقالت : وربما جززتها وأزلت عنك سمة قومك ، فقال : هيهات هيهات لما تتوعدين ! وإن موعدك الصبح وليس الصبح ببعيد .

ثم انفلت راجعاً وقد ترك فى نفسها إعجاباً به ، فقالت لجواريها وخدمها : لقد رأيتموه ملء العين والقلب ، ولا أحسبه إلا فارساً طلق اللسان، ثابت الجنان ، قويا متيناً ؛ ولا ينتهى أمرى معه إلا بما يدهش الألباب ، ويبقى أحدوثة فى فم الزمان ، ثم دخلت على أمها وكأنها لا تعى من الدنيا إلا ربيعة ، وما عسى أن يكون غداً بينها وبينه ، فقالت لأمها : لئن جاز أن يقهرنى فارس فلن يكون إلا ربيعة ، ولله درّه ! فما أعظم

خلقه ! وما أقواه وأفصحه ؛ فقالت أمها : يا بنيتى ؛ هذا ربيعة بن المكدم ، ولأبيه هذا فى حرب البسوس مواقف بطولة نادرة ، وكثيراً ما غلب ربيعة الفرسان ، وبذ الأقران من أمثال عمرو بن معديكرب الزبيدى ، وأنس بن مدركة ، وملاعب الأسنة ، وعامر بن الطفيل ؛ وأرى لك يا بنيتى الخير فى الزواج منه ، وأن تعفيه من المبارزة ، فقالت هند : لن تطاوعنى نفسى أن أملكها لأحد إلا لمن بارزنى وغلبنى ، ولا تطمعى منى فى شىء غير هذا ، فقالت أمها : أنت وما تريدين .

أما ربيعة فقد انفلت من خباء هند إلى أبيها قيس ، ونقل إليه ما جرى من الحديث بينها وبينه ، فقال : هذا ما ارتضته هند لنفسها فى أمر زواجها ، وكم من فارس كريم خطبها لنفسه فما رضيت إلا أن يبارزها وينازلها ، فمنهم من تأبت نفسه عن منازلة البنات ، ومنهم من بارزها وغالبته ، وجزت ناصيته ، ولو ذكرت لك أسماء من بارزوها لطال عليك القول ، وأمرك بين يديك ، فإما بارزتها وإما خليت سبيلها ، فقال : ستعلم غداً أينا الفائز المنتصر ، ثم انصرف إلى خيمته بين صحبه الأربعين الذين حضروا معه .

ولما أصبح الصباح وفد إلى ميدان المبارزة فرسان بنى شيبان ليشهدوا مصير هند وخاطبها ، وركب ربيعة جواده لابساً قميصاً أبيض هفهافاً ، معتماً بعمامة - ريرية بيضاء ، وسار هو وصحبه إلى الميدان ، أما هند فقد

ركبت جوادها متدرعة بدرعها ، وفوق رأسها بيضتها وأسرعت فى نشاط وخفة ، إلى الميدان . وقد أثار ربيعة العجب فى نفوس القوم ، إذ خرج إلى المبارزة من غير درع وبيضة ، كأنه ذاهب إلى سامر يلهو فيه ويمرح ، وجعلوا يتقولون عليه فى همس بعض الأقاويل ، فمن قائل : لعله غير جاد فيما وعد من مبارزة ؛ ومن قائل : ربما خرج على هذه الحال لتنصرف هند عن منازلته ترفعاً بنفسها أن تبارز فارساً غير دارع ؛ ومن قائل : قد يكون متوقعاً إخفاقه فجعل من خروجه على تلك الحال معذرة وتعلالاً ؛ ثم أسلموا أنفسهم إلى ارتقاب ما سيجرى به القدر بعد قليل .

واستحر النزال بينهما فى غمرات الغبار حتى كل جوادها وتعب ، فاستأذنته أن يمهلها حتى تركب جواداً غيره ، وتعود إليه فى سرعة عاجلة ، فأذن لها أن تستبدل به ما تشاء من الجياد ، ثم استأنفت كفاحها وطاردته مطاردة عنيفة وهو يجرى أمامها مستدرجاً إياها حتى غابا عن أنظار القوم ، ثم ارتد فى جرأة وقسوة فأبطل طمعها ، وأضاع رجاءها وأملها وأوقعها فى يده أسيرة لا حول لها ولا قوة ، فقالت : الآن حق علىّ الوفاء ، فقد أصبحت لك ملكاً ، ورضيت بك زوجاً ، فعد بنا إلى القوم ولك أن تحكم فىّ بما تشاء ، فساقها أمامه سائرة على قدميها ، ممسكة لجام جوادها بيدها حتى دخلا ميدان المبارزة على هذه الحال ، فعظم ربيعة فى أعين القوم وصاحوا : انتصر ربيعة ، ثم قال لها : تكلمى يا هند ، فقدجئت أباك

خاطباً وقدمت إليك راغباً ؛ فقال أبوها : ما علمت أحداً غيرك يخطب البنات فى حومة المبارزة والنزال ، فماذا تقولين يا بنية ؟ فقالت : رضيت به كل الرضى ، فقال ربيعة : اقترح ما تشاء من مهرها ولا تقلل ، فقال : لا نبيع البنات بيع البهائم ، وصداقها رجولة بعلها ، وكرم سجاياه ، وشرف أصله ، ونادر شجاعته ؛ ويكفينا بعد ذلك ما تشاء من المال ، فقال : ولك عندى من الصداق ما يغليها ويتحدث به العرب على مر الأعوام ، ثم انصرف الجمع وذهب ربيعة وصحبه إلى مضاربهم .

وفى الصباح دخل ربيعة على قيس بن مسعود فى مجلسه ، وسادات قومه من حوله ، فحيا وجلس ، وتلقوه بالبشر والإعجاب ، فغمروه بثنائهم كما غمرهم بثنائه ؛ ثم أبرم عقد الزواج ، وانتشر الفرح به فى جنبات الأحياء ، وبعد ثلاثة أيام بيض زفت هند إلى ربيعة زفافاً كريماً شمل بفرحه القباب والمضارب ، وأقام عندها عشرة أيام . وفى الليلة الحادية عشرة رحل ربيعة وصحبه مخلفاً هنداً زوجه ، وجاءتها أمها فى الصباح فوجدتها وحدها ولم تجد أحداً من أصحاب زوجها ، فسألتها عن ربيعة فقالت : رحل هو وصحبه فى السحر ، ولا أعلم عنه شيئاً غير ذلك ، ولا أدرى سبباً لهذا الرحيل المفاجىء ، فقالت : لعلك فعلت شيئاً أغضبه ؟ ! فقالت : ما رأى أوسمع منى إلا كل خير ، فقالت : ربما خرج للصيد والقنص وعما قريب تجدينه حاضراً ؛ ولما أخبرت قيساً أرسل فى أثره رجالا وفرساناً فما



ربيعة بن مكرم وهند بنت قيس يتبارزان

عرفوا له خبراً ، وذاع رحيله فى الأحياء ، وكان حديث الناس فى نهارهم وليلهم

٣

لم يكن رحيل ربيعة عن سآمة لهند أو هجر لها ، ولكن مروءته لم تتسع إلى أن يتزوجها ويعيش معها ولم يكن قد دفع لها صداقاً يليق بها وبه ، فخرج يتلمسه من أى مكان ، وسار هائماً فى القفار ومعه عبده مفتاح ، فقال له : ما غايتك من هذا السير ؟ وأى مكان تريد أن تذهب إليه ؟ فقال : أبغى الحصول على مهر هند بسيفى . فاذهب بنا إلى كبار الملوك والمدائن ولا تخش أحداً ، فقال : إن أردت البلاد الغنية فأرض الشام واليمن ، فاختر ما يروقك منهما ، فقال : أيهما أقرب إلينا ؟ فقال : بلاد اليمن . فقال : سر بنا إلى مدينة عدن فعسى أن نصيب منها مالا وفيراً ، وسار مفتاح يسعى بين يدى مولاه ربيعة ، وبعد عشرة أيام قضوها فى مسيرهم قال مفتاح : هذه مدينة عدن قد أشرفنا عليها ، وهى غنية بالأموال والتجار ، وترد إليها القوافل تباعاً ، فقال : تسلل إليها وائتنى بأخبارها ، فقال : إن الليل قد أقبل ولن أستطيع فيه معرفة شىء مما تريد،

وفى الصباح ستخرج الأموال والأنعام فى حراسة أصحابها ، فإما أغرت عليهم وسلبت أموالهم ، وإما تركتهم وشأنهم وغزوت المدينة فأخذت من أموالها ما يكفيك ، فأعجبه رأى عبده مفتاح واتخذا لهما مكمناً لاذا به وكمنا فيه يرتقبان الصباح الباكر ، وكانت هذه الليلة شديدة الظلام لا يكاد المرء يرى فيها كفه . وفى الثلث الأخير منها لاح لهما على بعد ضوء ضئيل ، فحسباه ضوء قافلة آتية إلى المدينة ، ولما أوشك أن يقترب منهما أمر ربيعة مفتاحاً أن يذهب إليها ويأتيه بأخبارها ، فانطلق مسرعاً وسلم على رجالها وعرف ما معهم من الأموال ، وسأله أحدهم : من أنت يا غلام ؟ فقال أنا مفتاح عبد ربيعة بن المكدم ثم سألهم : وأين صاحب هذه القافلة ؟ ! فأجابوا : ها هو ذا سائر على أعقابنا فى جمع من غلمانه ، ثم انفلت مفتاح إلى مولاه ربيعة وبلغه ما رأى ، فنهض قائماً وامتطى صهوة جواده ، وأسرع إليهم ، وصاح فيهم صيحة مدوية ، وأنذرهم إن لم يتركوا له هذه الأحمال من الأموال أخذها عنوة بعد أن يقتلهم ثم قتل بسيفه أربعة منهم : واحداً فى إثر واحد ، ففزعوا إلى صاحب الأموال وقالوا : نهبت أموالك وقتل غلمانك فارس جبار ما رأينا مثله . وقد خشينا الهلاك ففررنا إليك ، فهمّ فى قوة وساق جواده إليه ، وقامت بينهما معركة حامية ، هذا يدافع عن أمواله بحق ، وذاك يقاتل ليأخذها بالباطل ، ما دام يشعر أنه أشد من غيره وأقوى . ولما رأى رجال القافلة مصرع صاحبها تركوا الأموال

ودوابها وفروا إلى المدينة هاربين ، فساق ربيعة الجمال تحمل الأموال ورجع ظافراً بما غنم ، ولكن الهاربين من غلمان القافلة ورجالها ما لبثوا أن وصلوا إلى صاحب المدينة وأخبروه. ما حل بالقافلة من نهب وقتل وتشريد فخرج إلى ربيعة فى قوة من رجاله فلم يجد معه إلا غلامه مفتاحاً ، فأمر بعض رجاله أن يستردوا الأموال ويقتلوه أو يأسروه ولكنه غلبهم ، فارتدوا إلى صاحبهم خائبين ، فتقدم هو إلى ربيعة وجعل يقاتله ، ولكن ربيعة غلبه ، وأمر مفتاحاً غلامه أن يشد وثاقه ، فاستعرت نار الغضب فى صدر فارس عنيد يسمى رأس الغول وحمل على ربيعة حملة عنيفة ، ولكن ربيعة لم يمهله فأنجز قتله ، وجعل رجاله طرائد هزيمة ، ففروا إلى المدينة ، وكان قد أسر منهم نحو عشرين فارساً .

وقال صاحب المدينة لربيعة : ماذا تريد منى إن أنت حملتنى إلى ديارك ؟ فقال : أن تفدى نفسك بالمال كما جرت بذلك عادة الأبطال ، إن هم وقعوا فى الأسر والاعتقال فقال : اطلب منى الآن ما تشاء من المال ، واسمح لبعض من أسرتهم من رجالى ليأتوك به من المدينة ، ولا تطل بحملى معاك مدة أسرى .

فقال ربيعة : لك الأمان من قتل أو أذى ، وسأبيعك نفسك فى ديارى ، ولو لم أكن على عجل من أمرى لأجبتك إلى ما طلبت ، فطب نفساً ولا تخش ضرا ، وساق الجمال ونشط مسرعاً حتى أشرف على ديار

بنى شيبان ، فأنفذ غلامه مفتاحاً يبشر القوم بعودته ظافراً بمغانمه ، وسمعت هند ذلك النبأ فنادت بأعلى صوتها : يا أخت ربيعة ، قد جاء أخوك سالماً مظفراً . وكانت أم ربيعة قد طال عليها أمد غيبته ، فأخذت من أبقى لها الزمان من إخوته ، ونزلت بهم فى أرض بنى شيبان ، واستقبلتهم هند أكرم استقبال . وأنزلتهم فى أعز مكان وأطيب معيشة حتى عاد ربيعة .

وكان استقبالا رائعاً وعودة سارة انقشعت لها عن المضارب سحب الأحزان ، وأضاء نواحيها أنوار فرحة فاجئة بعودة من أحبته القلوب وتعلقت به الآمال . وأقبل ربيعة وقيس حموه عن يمينه وبسطام حامية بنى شيبان عن يساره ، فى جمهرة من علية القوم ورجالهم . حتى دخل هو مضربه . فألفى أمه وأخته فعظمت فرحته وجلس بينهم ملياً يتبادلون تحايا التلاق بعد طول الفراق . ثم استأذن أمه أن يذهب إلى قيس فى مجلسه ، وهناك قال له : أيكفيك ما أحضرت من الأموال مهراً لابنتك ؟ وإنى لآتيك بأكثر منها إن أردت .

قال قيس : لم يكن فى نيتى أن أطلب منك مالا قل أو كثر ، وما جئتنا إلا بمال كثير وخير وفير ، ويكفينى أن تعيش فى بيتك سالماً ، فالأرزاق مقدورة وإن كان السعى إليها واجباً ، وقد رأيتنا فى نعمة واسعة مما أسبغ الله علينا .

قال ربيعة : ولكن المرء إذا أبطل مواهبه وركن إلى القنوع كان موته

خيراً من حياته ، فما خلق إلا ليكد ويسعى ، وإن هو لم يصل بكده وسعيه إلا بمقدار ما كتب له .

فقال قيس : ما سرنى منك إلا نفسك العالية وهمتك الوثابة ، ورجولتك الكاملة ، وتلك ثروة الحياة لكل عزيز كريم ، ولما انتهى الحديث واستوفت الجلسة ودعه إلى بيته .

٤

لم يلبث بنو شيبان على اطمئنانهم وسرورهم إلا مدة قصيرة ؛ وفى فجر يوم جاءهم جيش كالسحاب المتراكم ، فهب قيس وجنده وتأهبوا للقائه ، وكان ربيعة حينئذ غائباً عن الديار ، مشغولا بالصيد والقنص ، وجاءهم رسول هذا الجيش الغازى يستأذنهم فى لقاء ملكهم قيس فأذنوا له ، ومثل بين يديه ، فحيا وسلم ، ثم قال : لقد جاءكم فياض بن علقمة سيد بنى كلب ، وملك زاوية اليمن ؛ وقد شغف بهند بنت قيس حبا ، ويريدها له زوجاً ، فإما رضيتم مختارين طائعين فأسبغ عليكم نعمه وأمواله ظاهرة وباطنة ، وإما أخذها قسراً ، وأذاقكم شقوة الحياة وضعف الممات . فما احتمل قيس هذا البلاغ ، وأمر رجاله أن يوجعوه ضرباً ، ويطردوه إلى مليكه طرداً ، ففعلوا به ما أمروا . ولما رآه فياض على هذه الحال احترق قلبه غيظاً ، وأمر فى الحال جنوده أن يتأهبوا للقتال ، وكان فارساً جباراً ، فركب جواده ، وبرز بين صفوف الجيشين ، ونادى أن ابرزوا إلىّ فلن أترك منكم أحداً ؛ فخرج إليه بسطام حامية بنى شيبان ، ودارت بينهما مبارزة عنيفة كان مصيرها أسر بسطام بن قيس ، فمرج الجيشان يلتقيان ، وخاضا غمرات القتال ، وسالت الدماء واشتد الهول ، ودامت هذه الحال على أشدها جميع النهار ؛ فلما جاء الليل سكت القتال وسكن كل فى مبيته ، وجلس فياض وسادات قومه ، وأمر بإحضار بسطام بين يديه فقال له : إما زوجتنى أختك وإما قتلتك ، وإن شئت جعلت زواجى منها فدية لك ، فقال بسطام : ليس لى من أمرها شىء ، وأمرها فى يد أبيها وأبى ، وليس من العدل فى شىء أن أحمل تبعة أمر لا أملكه . فبعث فياض إلى قيس ينذره قتل ابنه إن لم يزوجه ابنته ، فأجابه قيس : لئن قتلت بسطاماً فما قتلت إلا سيداً كريماً لم يرتكب ذنباً ، وإذا انتهى أجله على يديك فذلك قضاء الله الذى لا مرد له ؛ وأما ابنتى فقد خرج أمرها من يدى ، وبعلها بحمايتها زعيم ، فهو سيد شجاع كريم ، يدعى ربيعة بن المكدم فارس بنى كنانة ، فإن كنت مصراً على طلبها فلتطلبها من زوجها . وما لك علينا بعد ذلك من سبيل ، فأعرض فياض عن قتل بسطام وتهديده ، وصبر حتى ينظر ماذا يفعل .

وحضر ربيعة فى الصباح والفريقان يرتقبان ، فأخبره قيس ما كان من

أمر فياض معه ، فما لبث أن برز ربيعة إلى الميدان ، وجال بين الفريقين ونادى فياضاً أن يبارزه ، ليذوق هو نفسه مرارة هذه الحرب ، ما دام قد أوقد نارها لحاجة فى نفسه ، لا صلة لها بنفع يعود على شعبه وجنده ؛ فأسرع إليه فياض على جواده قائلا : أنالها ! أنالها ! . وما أنت إلا وقود لها ! وقام بينهما عراك زاغت له الأبصار ، وخفقت القلوب من شدته ، ثم دام فى قسوته حتى مضى نصف النهار . وأحس فياض ضعفاً ورهقاً وعجزاً ، فألقى سلاحه وقال : يا ربيعة ، لقد رأيت منك قتالا لم أجده من أحد إلا أن يكون لعنترة بن شداد حامية بنى عبس ، وقد أضعفت قوتى ، والآن أرجو منك الصنيعة ، ومثلى لا يضيع المعروف عنده . فإن أنت أنصفتنى فى مواقف المروءة كنت جديراً بما عرف عنك من شهامة ونخوة ومروءة . فقال ربيعة : وماذا تريد ؟ ؛ قال فياض : أن تستر ضعفى وعجزى حتى لا أفقد بين العرب منزلتى ، وحتى لا ينفض جندى من حولى ، وأنت العاقل الخبير بمصير الأمور ؛ على أن أكون لك صديقاً وفياً يعينك فى الشدة ، ويمدك بما تشاء من الأموال والرجال . وأيقن بصدق ما سمعت ؛ فقد عرفت بالصدق والوفاء والأمانة . وستريك الأيام مبلغ اعتزازى بهذه الخلال الكريمة ، واعلم بأن الرجل لا تكمل شجاعته حتى تكمل مروءته ، وقد ناشدتك المروءة ، فماذا أنت فاعل ؟ فقال ربيعة : إنى فاعل ما تريد ، فأبن عما فى نفسك ! فقال : أن تعود إلى قتالى ساعة

ثم يسكت كل منا عن صاحبه ، ويعود إلى أصحابه معلناً فيهم أنه طلب إليه تأجيل المبارزة إلى حين ، وسترى بعد ذلك منى ما يزيد شأنك علواً فى قومك وما أذيعه عنك بين العرب من مروءة ونبل كريم ؛ وإن أنت لم تثق بقولى فها أنا ذا قد سلمت نفسى إليك فافعل ما تشاء ، وأرجو ألا تضيع صداقة مثلى . فعقد الحياء لسان ربيعة وغلبت عليه مروءته وقال : قد أقلتك يا فياض ، ولو كنت أبغى قتلك لقتلتك فى أول جولة ، ولكنى أردت أسرك لأفدى بك بسطام بن قيس . فقال فياض : سأطلق سراح بسطام فى عزة وكرامة عقب عودتى إلى أصحابى ، ولن تجد منى بعد هذه المروءة إلاما سمعت ، وسلم كل على صاحبه ورجع أدراجه .

أحضر فياض بسطام بن قيس وأركبه جواداً ومنحه هدية سنية ، وودعه إلى قومه فى سلام وعزة ، ففرح أبوه بعودته ، وأقام الولائم ، وحضرها فياض وكبار الفرسان من بنى كلب ، وتبادل كل من الفريقين الهدايا والمنح ، ثم ارتحل فياض وأتباعه بعد أن عقدت بينه وبين قيس أواصر الصداقة والإخاء ، وكان لربيعة فى هذه الموقعة فضل على بنى شيبان ، عرفه كل قاص ودان .

وبعد أيام أبدى ربيعة عزمه على الارتحال إلى دياره بعد هذه الغيبة الطويلة ، فأذن له قيس فى الرحيل ، وأمده بالمال الجزيل ومنحه الغلمان

والإماء ، وجلست هند فى هودجها ، وصحبهم قيس وسادات قومه مسيرة يوم أو يزيد ، ثم ألح عليهم ربيعة أن يرجعوا فرجعوا ، وكان قيس قد وصى ابنته أن تحسن عشرتها ، وأن تدين بطاعة زوجها ، وتبدى فى وجهه سرورها ، وقال لها : إن زوجك شجاع بعيد الهمة لايهاب المخاطر ومثله قريب خطره ، فإذا جاءك نبأ قتله فلا تجزعى ولا تشق جيباً ، واعتصمى بالصبر والثبات حتى تعودى إلى بيت أبيك ، حاملة فى صدرك الحزن على عشيرك .

٥

أخذ ربيعة ومن معه يطوون الصحراءطياحتى كانوا فى وادى الإحرام، فطلعت عليهم خيل من بين روابيه وآكامه ، يقدم فرسانها دريد بن الصمة فلما عرفته هند قالت لزوجها : هذا دريد بن الصمة فى جماعة كبيرة من فرسانه ، وكان قد خطبنى لنفسه فرددته خائباً ، ولا إخاله إلا مقاتلنا. فقال ربيعة : اطمئنى ! وسترينه بعد قليل أسيراً ، وجيشه هذا هارباً مذعوراً ، فقالت : لا تجرد سيفك حتى تقضى حاجة فى نفسى ، وذلك أن تعطينى خنجرك هذا ، فإن ظهرت عليه وظفرت به رددته إليك ، وإلا

قتلت نفسى به ، فناولها خنجره وتأهب للقتال ،

وأراد دريد أن يعرف هذا الركب قبل أن يقاتله ، فبعث ابن عمه إلى ربيعة وقال له : أنت الآن أمام فرسان بنى هوازن ، وعلى رأسهم دريد ابن الصمة ، وهو يأمرك أن تسلم جميع ما لديك ، وتذهب ناجياً إلى سبيلك ، وإلا قتلتك أو أسرتك ، فقال ربيعة : عجبت لمن خدعه الغرور ، ارجع إلى صاحبك وحذره المخاوف ، فما يلقى إلا فارساً جسوراً ، فقال : ومن أنت أيها الفارس ؟ ! ومن هذه الفتاة التى فى هودجها المطرز بالذهب ؟ ! فقال ربيعة : هذه هند بنت قيس بن مسعود ، وأما أنا فربيعة بن المكدم ، وكفى صاحبك هذا تعريفاً بنا . فأخبر الرسول دريداً ما سمع ، فسرُه أن وجد فى هذا الركب أمنيته وقال : ارجع إليه ومره أن يترك إلينا هنداً ومن معها من الغلمان والإماء وما لديها من الأموال ، وليرجع هو من حيث أتى مبقياً على نفسه ، وإلا فاتنى برأسه ، فلما سمع ربيعة هذا الوعيد ثار ثورة الأسد ، وبطش بالرسول فمزقه بسيفه ، ثم أقبل على فرسان دريد وطلب المبارزة وجعل يقتل كل فارس جاءه حتى بلغ عدد القتلى عشرة ، فلم يجد دريد بداً من الخروج إلى ربيعة ومبارزته وظن أنه غالبه ، ولكن للشباب قوته وخفة حركته ، فلم يلبث أن أجهده ربيعة ، وضربه فى صدره ضربة ألقته على الأرض خائر القوى ، فانقض عليه عبده وحمله أسيراً ، أما جماعة دريد فقد فرقهم ربيعة بسيفه فلم يبق منهم فى الساحة أحد .

وكان الليل قد أرخى سدول الظلام ، فأحضر ربيعة دريداً وقال له : إنك شيخ العرب ، ولا أحب أن يقال : إن ربيعة أسر دريداً وهو منه كأحد أبنائه ، وما فعلت بكم هذا عن رغبة فى نفسى ، ولكنكم أكرهتمونى عليه إكراهاً ، وأنت الآن حر طليق ، وهذا جواد كريم فاركبه وأدرك أصحابك قبل أن يصلوا إلى الديار ويتحدثوا بما رأوه ، فقال دريد : ليس عجيباً أن تكرمنى هذا الإكرام ، فمروءتك معروفة وأصلك كريم ، وما عليك ذنب فيما فعلت ، فنحن الذين بدأناك بالشر والعدوان، وقد قيل : الخير بالخير والبادى أكرم ، والشر بالشر والبادى أظلم . ثم أثنى عليه وودعه إلى صحبه ، وكانوا قد وقفوا بعيداً ينتظرون معرفة ما يجرى على دريد فى أسره ، وقص عليهم ما قاله ربيعة وفعل ، فشكروا له هذا الصنيع الجميل وساروا يطلبون ديارهم .

* * *

أما ربيعة فقد بات ليلته ، ثم استأنف مسيره إلى دياره ، ومعه أمه وأخته وزوجه ، والأموال والعبيد والإماء ، ولما كان وقت الظهيرة لاح له جماعة من الفرسان يبلغ عددهم نحو الستين فأرسل عبده مفتاحاً إليهم ليتبين أمرهم فقال لهم : من أنتم من العرب أيها الفرسان ؟ ! فأجابه أحدهم نحن بنو عبس فرسان المعارك ورسل المنايا ، فقال : ومن وليتموه أمركم

فى سفركم هذا ؟ فقال : حامية بنى عبس عنترة بن شداد ، ومن تكون أيها السائل ؟ ! فقال : عبد ربيعة بن المكدم فارس بنى كنانة ، فقال : العبسى : ارجع إلى مولاك وأخبره أن يتخلى عما معه من الأموال ، وإلا فقد حل به النكال والوبال ، ثم رجع وعلى وجهه علامات هم يملأ صدره ، فابتدره ربيعة قائلا : ماذا بك يا مفتاح ؟ فقال : توقعت اليوم هما ناصباً، وحزناً غالباً ، فهؤلاء فرسان من بنى عبس ، يحملون المنايا فى سيوفهم ورماحهم . وزعيمهم عنترة بن شداد الذى عنت له وجوه الأبطال الصناديد ، وهم يخيرونك بين أمرين : إما أعطيتهم ما معك من الأموال ونجوت سالماً ، وإما أخذوها عنوة وقسراً بعد أن يقتلوك أو يأسروك ، فابتسم قائلا : نفّس عن صدرك فلن ترى اليوم إلا ما يسرك . ونهض إلى جواده فامتطاه وجرى به إلى ساحة فسيحة بينه وبينهم ، ونادى فيهم أن ابعثوا فرسانكم للنزال إن كنتم صادقين فى وعيدكم ، ولا تخشوا مواقف البطولة ، ولا تحرصوا على الحياة أذلة . فتحمس فرسان بنى عبس وتدفقوا عليه فارساً فارساً ، والنصر حليف ربيعة : فهو يقتل هذا ، ويأسر ذاك ؛ وكان من الأسرى غصوب بن عنترة ، أما ميسرة فقد حظى من ربيعة بطعنة فى جنبه فر بها إلى قومه ، قبل أن يتمكن من أسره .

* * *

سيدور بخلدك أيها القارئ الكريم ، وسيلح عليك فى دورانه حتى

لا يترك ناحيةمن شعورك : كيف استطاع عنترة صبراً حتى فعل ربيعة بفرسانه ما فعل ، وفيهم ابناه غصوب وميسرة ؟ ! لو كان فيهم لحمى فرسانه وبرز إلى ربيعة فلقاه حتفه ، فأين هو الآن ؟

كان عمرو بن معديكرب قد أوصى رجاله فى قتاله ربيعة بن المكدم هذا أن يخبروا عنترة إن هو أسره أو قتله ، فلما انتهى أمر عمرو بأسره فر بعض رجاله إلى عنترة ، وبلغوه وصية عمرو . فنفر عنترة بفرسانه هؤلاء إلى ربيعة ، وأغاروا فى طريقهم على بنى يشكر ، وغنموا أموالهم ، وأمر فرسانه أن يسبقوه بتلك الأموال ، وتخلف هو وعروة بن الورد ليصرفا عنهم فرسان بنى يشكر إن هم خرجوا ليستردوا أموالهم ، وكان ما قدر عنترة ، فما لبث أن رأى جمعاً من فرسانهم يتدفقون من خلفه ، جادين فى طلب أموالهم ففرق شملهم بمعونة عروة وقتل زعيمهم جياش بن طالب اليشكرى ، ثم عزما على المسير فى صباح غدهم ، وذلك ما حال بين عنترة وربيعة ، ولم يكن يجرى فى صدره أن سيلقى فرسانه أحد فى تلك الفترة الوجيزة ، ولو ظن هذا ما أرجأ مسيره إلى غده .

شعر فرسان بنى عبس بحرج الموقف أمام ربيعة ، فأرسلوا إلى عنترة أخاه جريراً يستحثه على المسير إليهم ، ويبلغه ما فعله ربيعة بهم ، فأسرع إليهم وهم لا يزالون يبارزون ربيعة ، وهم لا يزالون مغلوبين ، فلما رأوه صاحوا فرحين ونادوا : ويلك يا ابن المكدم ! فقد أفل نجمك ، وجاء



ربيعة بن المكدم يبارز عنترة . ربيعة ينكسر رمحه فيقع فى حيرة وعنترة يعف عنه

أجلك ، وما أنت بمستطيع أن تدفع عن نفسك، وكان النهار قد ولى وأدبر ، فوقفت المبارزة لتدور فى صبيحة اليوم التالى . وقال ربيعة لعبده مفتاح : خذ حذرك وتسلل إلى القوم واعرف من فرحوا بقدومه لنكون على بصيرة من أمره ، فلما رجع إليه قال : يا مولاى ، كان القادم عنترة بن شداد ، مذل الرقاب ، ومرجف البلاد ؛ وقد باتوا الليلة وقلوبهم ملء صدورهم ، وأملهم مشرق فى وجوههم . فقال ربيعة : ولتنم أنت أيضاً وقلبك ملء صدرك ، وأملك مشرق فى وجهك . فما هم بضارين به من أحد إلا بأذن الله .

وفى الصباح التقى الفارسان ربيعة وعنترة ؛ واشرأبت لهما الأعناق ، وشخصت الأبصار ، وحبست عليهما المشاعر ، وأحاطت بهما الظنون والهواجس ، لهول ما رأوا من شدة الجلاد والكفاح ، وغريب ما شاهدوا من ألوان الكر والفر والإقبال والإدبار فوق البطاح ، وفى كل ساعة من نهار تمر يعظم الخطب ويشتد الكرب ، ولا يرتاب أحد أنهما مقتولان بطعنتين صادرتين منهما فى وقت واحد ، ولما أوشك النهار أن ينقضى كان ربيعة قد انكسر سيفه ورمحه ، وجف ريقه ، وبدت حيرته وخوفه ، فقال عنترة : لا تخف يا فارس العرب ، وخذ سيفى هذا وعد إلى قتالك ، ولتعد إليك رباطة جأشك ، فأمسك ربيعة سيف عنترة بيده . ورفعه إلى فمه فقبله وقال : حرام علىّ أن أقاتلك بسيفك وقد أنصفتنى من نفسك ، وأبنت عما

جبلت عليه من فضل ومروءة ، فاتخذنى لك صديقاً مخلصاً وأخاً وفياً ! ! وأقبل عليه فتعانقا ، وقبل يديه ، وملأ سمعه حمداً وثناء ، فقال عنترة : اذهب إلى أمك وأخيك وزوجك فقلوبهن مشغولة بك ، وهذا سيفى هبة منى لك ، ولا يكون إلا ما تقر به عينك ، وبذلك انقشعت سحب الخصام وجرى بين القوم نسيم السلام .

عجبت أم ربيعة وأخته وزوجته لما سمعن من مروءة عنترة ونبله ، وشجاعته وكرم نفسه وقلن : ذلك إنسان أجدر بالناس أن يلتفوا حوله محميين بسيفه ، مشمولين بوفائه وكرمه ، وبينما هنّ فى نشوة السرور بربيعة وصداقته لعنترة إذ جاءه شيبوب وقال له : كلم أخى عنترة ، فقالت أمه : أجب دعوة هذا الفارس الكريم ، فنهض إليه تاركاً سلاحه ، فوجد عنده دريد بن الصمة ، فسلم عليهما وقبل أيديهما وجلس معهما فى أنس ومسرة. وتوثقت بينهم رابطة الأخوة ، وقال عنترة : دعوتك لأن دريداً يحب أن يراك ويجلس طويلا معاك ، فقال ربيعة : ذلك ما أتمناه ، ولهذا فلن تبرحوا هذا المكان قبل ثلاثة أيام . فقال عنترة : كما ترى يا ربيعة فرضاك حبيب إلى نفوسنا ، وأمر ربيعة أن تذبح الذبائح ، وأقام بنو عبس وربيعة ومن معه ثلاثة أيام يأكلون ويشربون ويمرحون ويفرحون ، وفى ثالث يوم قال ربيعة لعنترة فى مجلس جمع دريداً وبعض الفرسان ، قد اخترتك لأختى زوجاً ، لأعزز صلتى بك ، ولنكون شركاء فى النسب . فسكت عنترة ،

فقال دريد : وجب عليك يا عنترة أن تقبل على من أقبل عليك ، وترغب فيمن رغب فيك ؛ فمد عنترة يده وقبض على يد ربيعة ، وأبرم عقد الزواج وزفت أخت ربيعة إلى عنترة؛ وقد كان سرور دريد عظيماً بهذه الصلة الوثيقة بين عنترة وربيعة، فجعل يثنى عليهما ثم قال : أحب أن أصلح ما بين قومى وربيعة وأجعلهم فى صفاء ومودّة ، وأحمل دية من قتل من أصحابى إلى أهليهم ، فقال ربيعة : ذلك أملى ومناى ، فماذا تريد منى ؟ فقال : أن تسير أنت وعنترة إلى حلتى ، وتقضيا حق ضيافتى بين أهلى وعشيرتى ، فأجاباه إلى ما طلب، ورحلوا جميعاً فرحين بتلك الألفة الوثيقة . ولبث عنترة وربيعة عنده ثلاثة أيام متمتعين بكرمه ، ووزع دريد الديات على الأهلين الذين استشهد لهم فى القتال شهيد ، وبعد انقضاء المدة ودع بعضهم بعضاً، وقال عنترة لربيعة : أطلق سراح عمرو بن معديكرب إطلاقاً كريماً لا مذلة فيه ، فقال : سمعاً وطاعة ، وسيكون ذلك فى إعزاز واحترام عقب وصولى إلى الحلة ، وراود دريد عنترة فى إخلاء سبيل صهره ذى الخمار فقال عنترة : لقد كنت عزمت أن أقتله وأصلبه لأريح الإنسانية من خبثه ونكده ، ولكنى سأتركه من أجلك هذه المرة ، وإن عاد إلى خبثه فلا يلومنّ إلا نفسه ! ثم وصى ربيعة عنترة بأخته كما فرح ببقائها عنده ، ليكون دائماً على صلة بعنترة وزيارته له ، ثم انصرف كل إلى سبيله .

* * *

دخل عنترة دياره ففرحت عبلة وفرح القوم بقدومه ، ثم سأل أخاه جريراً عن ذى الخمار فقال : لا يزال فى معتقله يطحن الشعير والحنطة ، فقال : سألنى فيه دريد ، فأخل سبيله من أجله . وإن أوقعه فى يدى خبثه فلن يذوق إلا حتفه ، وما كاد جرير يفك عنه أسره حتى انفلت كالسهم هائماً على وجهه لا يلوى على شىء مما حوله . ولا يذكر عنترة وصفحه ؛ فقال عنترة : طهرت المحلة ، وطارت البلية . وعسى أن يرتد إلى نحره سيف غدره وخبثه .

وبعد قليل حضر قيس من صيده وقنصه ، والتقى بعنترة فرحاً، فجعل يحدثه عن كل ما جرى له ، وأثنى على ربيعة ثناء جميلاً ، ثم أعطاه من المغانم ما يليق به ، ووزع بقيتها على أهله توزيعاً شاملاً ، واطمأن بالمقام بين أهله وعشيرته .

وكذلك فرح قوم ربيعة بقدومه ، وأخبرهم بكل ما كان من أمره ، وأقام مطمئن البال قرير العين ، معروفاً بالشجاعة والقوة ذا مهابة عظيمة ومكانة سامية .

وذات يوم رغب فى زيارة عنترة ، فعززت أمه هذه الرغبة قائلة : ليس أفضل من زيارة الإخوان ، ويزيد هذا الفضل كمالا وقوة إذا ما كان التزاور بين الأقرباء ، فهو صلة للرحم : تبارك العمر وتطيل الأجل . فأعد ربيعة هدية سنية وعزم على الرحيل ، فقالت له زوجه هند : خذنى معك

حتى أتعرف بعبلة ونساء الحالة ، وحتى لا تطول علىّ مدة غيبتك فلا صبر لى على البعد عناك ، فأخذها ومعها أمه وأخته وبعض كبار عشيرته ، وتقدمهم فى المسير حتى أشرف على العلم السعدى ، فأرسل عبده مفتاحاً إلى عنترة وأخبره بقدوم مولاه فى حاشية من عشيرته وكبار فرسانه ، فهب هو ورجاله إلى لقائهم وأنزلوهم فى أطيب مكان وأرفعه ، وأجرى عليهم من الكرم ما أسبغ عليهم فضله ؛ وتعرفت النساء بالنساء وأقاموا جميعاً فى فرح وإعزاز عشرة أيام ، ثم استأذن ربيعة أن يرجع إلى دياره ، فأذن له عنترة ومنحه من الهدايا شيئاً كثيراً ، وسار معهم فى توديعهم ثلاثة أيام ، وكان قد خلا بزوجته أخت ربيعة من تلك المدة بعض الأيام ، ثم رجع إلى الأحياء مشكوراً .

٦

أما ربيعة فقد استمر سائراً حتى كان بينه وبين دياره مسيرة نصف يوم ، فطلعت عليه خيل كأنها قطع الليل . يقدمهم فارس طويل القامة ، عظيم الرأس ، عريض الصدر ، غليظ المنكبين ، يدعى نبيشة بن حبيب وصاحوا فى وجه ربيعة ومن معه أن اتركوا لنا ما معكم من أموال ونساء ،



ربيعة بن المكدم ينفذ رمحه فى صدره فيموت على ظهر جواده ، وأعداؤه ينظرون إليه خائفين

وإلا صببنا عليكم كل بلاء وشقاء ، فقال ربيعة لمن معه : لا تخافوا وارعوا الأموال والنساء ، واتركونى لهم ، فإنى بقتالهم وقهرهم زعيم ، وكان هؤلاء الفرسان من عرب بنى ضبة خرجوا فى صحبة قائدهم نبيشة ليقتص من ربيعة إذ تزوج هنداً ولينتقم من هند هذه أيضاً ، إذ كان قد خطبها لنفسه وبارزها فصرعته ثم جزت ناصيته وطردته ، وعرف أن ربيعة قادم من عند عنترة فكمن له فى طريقه والتقى به .

هجم ربيعة عليهم وجعل يقتل منهم ، وما انتصف النهار حتى كان عدد القتلى مائة فارس وطعن أحدهم جواده طعنة أوقعته على الأرض ميتاً ، فأسرع نبيشة إليه فطعنه بخنجر فجرح ربيعة جرحاً مميتاً ، ولكنه صد الأعداء عن النساء ، ولما شعر بدنو أجله أمرهن بالفرار مع خادمه مفتاح ، وامتطى هو صهوة جواد شارد ، ووقف أمام الأعداء متكئاً على رمحه ، وقد فارقته الحياة ، ولكنه لم يقع ، ولم يجسر الأعداء على القرب منه لما لاقوه من فتكه بهم ! وبذلك نجت النساء ! ولم تعرف الأعداء أنه مات إلا بخدعة : فقد استغربوا إحجامه ، وساورتهم الشكوك ، فأشار عليهم شيخ أن يطلقوا فرساً ويسوقوها نحو جواد ربيعة ، فلما فعلوا رأى الجواد الفرس شب عليها ، فسقط ربيعة ، فعرفوا بذلك موته ، وترحموا عليه ، وقال قائلهم : رحم الله ربيعة ، حمى النساء حيا وميتاً

وذاع فى بنى كنانة نبأ قتل ربيعة ، وكان حزنهم عليه أليماً ، وهب

الفرسان إليه فوجدوه ملقى على الأرض لا يردد نفساً ، ولا ينبض له قلب ؛ فحملوه إلى الديار ودفنوه . ولبست هند لباس الفرسان وركبت جوادها ، وذهبت إلى ديار أبيها معلنة أنها لن يرقأ دمعها حتى تثأر من عرب بنى ضبة ، وهناك قصت على قومها قصته ، فأشعلت فى صدورهم نيران الحماسة ، وأقسموا ألا يهدأ لهم بال حتى ينكلوا ببنى ضبة ، ويثأروا منهم .

أما أم ربيعة فإنها رحلت إلى عنترة تطلب منه المعونة كما وصاها ربيعة عندما أحس خطورة طعنته ، وسارت فى صحبة مفتاح حتى كانت أمام بيت عنترة ، منشورة الذوائب ، صائحة باكية مستغيثة ، وبنو عبس من حولها يبكون لبكائها ويرثون لحالها ، فأسرع إليها عنترة وسألها عما دهاها وأحزنها فقالت : أخوك ربيعة قد قتل ووصانى أن أستجير بك ، ثم قصت عليه قصته ، فأسف عنترة أسفاً شديداً وقال : لهفى عليك يا ربيعة ! وأقسم ليقتلن فرسان بنى ضبة ، ثم أنزل أم ربيعة منزلا مباركاً ، وبعد سبعة أيام من مقامها سار عنترة وعروة والهطال وغصوب وميسرة فى فرسانهم ، ولما أشرفوا على ديارهم بعث شيبوباً أخاه إليهم ليكشف له أمرهم ، فوجدهم كأنهم قطرات المطر عداً ، ، وانقلب إلى أخيه وهو فى دهشة واضطراب من هذه الكثرة التى لا تطاق ، فقال عنترة : ما خفت يوماً من كثرة عدد ، وما عبثت فى قتالى بأحد ، وكان موعد خروج الرعاة بالأغنام والإبل قد حان ، فاعترضها عروة فى ثلة من فرسانه ، وساقهم بها أمامه ، وتسرب

هذا النبأ إلى الديار فنفر الرجال سراعاً إلى أنعامهم ورعاتهم ، ونشبت حرب شديدة ، وحمل عنترة حملته الحاسمة ، ففرق جموع الأعداء ، وصبغ الأرض بدمائهم ، فانقلبوا على أعقابهم ، ولاذوا ببيوتهم ، ثم قالوا لكبيرهم نبيشة : ما جرّ علينا هذا الهوان ، وما أحرقنا بنار عنترة بن شداد — إلا ما فعلته بربيعة بن المكدم ظلماً وعدواناً ، فانظر ماذا ترى فى دفع هذا البلاء ، فقال : لا تحزنوا ولا تيأسوا ، وغداً أبرز إلى عنترة هذا وأريحكم منه بقتله كما قتلت ربيعة .

وفى اليوم التالى التقى عنترة ونبيشة ، فما لبث نبيشة أمام عنترة غير يسير حتى أحس عجزاً فى نفسه ، وأيقن أنه هالك لا محالة ، فاستحلفه بربيعة صديقه أن يرجئ مبارزته إلى الغد ليستكمل راحته ، ويرتد إليه ثباته ، فأكبر عنترة هذا القسم وأرجأه إلى الغد ، وما كان قول نبيشة هذا إلا حيلة دبرها ، وأحبولة نصبها لهربه ، فلم يمض من الليل إلا أقله حتى قال لفرسانه لا منجاة لنا من سيف عنترة إلا بالفرار من وجهه فى هذا الظلام ، فهيا بنا قبل أن ينقضى الليل فنشطوا فى هربهم خيفة وخفية حتى نزلوا على بنى تميم مستنجدين أميرهم جندلة بن الخطاف ، وكان فارساً قوى البأس وله على بنى عبس دم وثأر ، وحكوا له قصتهم ، فأكرم منزلهم ووعدهم أن يساعدهم .

وفى الصباح وجد بنو عبس مكان بنى ضبة قفراً ليس فيه أحد منهم ،

فأشار عنترة أن يدركوهم قبل أن يمعنوا فى هربهم ويضيعوا من أيديهم ، ولما أشرفوا على بنى تميم رآهم بنو ضبة وعرفوهم ، فأخبروا جندلة بقدومهم فخرج فى جنده إليهم وقامت بين الفريقين ملحمة كبرى انجلت عن قتل جندلة وهزيمتهم هزيمة شنعاء ، وأرجأ عنترة الإجهاز على بقيتهم إلى اليوم التالى ، وثار بنو تميم فى ليلتهم على نبيشة وقالوا له : لقد كان مجيئك شؤماً علينا ، وقد قاتلنا من أجلك وأنت قاعد لا تحرك ساكناً ، ولم تخض معنا حرباً قامت على سوقها من أجلك ، فقال لهم : سأبرز غداً إلى عنترة وأعجل بقتله لأكفيكم شره ، ولما سكن الليل قام نبيشة خفية إلى جواده وركبه ، وأرخى له العنان فانطلق به فى البيداء هرباً ، وفى الصباح تفقده بنو ضبة فلم يجدوه ، فعلموا أنه هرب لينجو بنفسه ، وأسفوا أن كانوا عوناً لجبان خوّان ، فجمعوا جموعهم وذهبوا إلى عنترة ينشدون عنده الصلح والأمان ، وأن يرد إليهم من أسرهم من رجالهم ، فقال : أما الصلح والأمان فقد رضيت بهما ، وأما الأسرى فلن أرد إليكم منهم أحداً ودعونى أفعل بهم ما أشاء ، فإنى لو أفنيتكم أجمعين ما أغنى ذلك عن قتل ربيعة شيئاً ، فقال بعضهم إلى بعض : وماذا علينا لو أحطنا به الآن وهجمنا عليه جملة وقتلناه ؟ ورأى عنترة ذلك فى أعينهم ، فقال : وما أنتم بناجين من سيفى ، وشنها عليهم حرباً قاسية وساعدهم بنو تميم فيها ، إذ وجدوهم قد خاضوها وهم فى ديارهم ، وبينما هم فى قتالهم أقبل بسطام بن قيس وهند زوجة ربيعة

في جيش عظيم ، فكانوا لبني عبس أقوى مدد ، وانتهت بنصر مبين لعنترة وأنصاره، فسحقوا الأعداء وأسروا رجالهم وغنموا أموالهم، وأفنوا كثيراً منهم، فتقدمت هذه إلى عنترة وشكرت له صدق وفائه ، وسألته عما عسى أن يفعله بنبيشة فقال : لن يفلت من يدي وإن تعلق بالنجوم ، وسأذبحه على قبر ربيعة .

وكان نبيشة كلما نزل على قوم وعرفوا منه مسألته طردوه طرداً ، وما زال بنو عبس وشيبان وكنانة سائرين في طلبه حتى أشرف بهم شيبوب على مرج غني بمياهه ومراعيه وأشجاره وأزهاره ، فأشار عنترة أن يمكثوا في هذا المكان ثلاثة أيام يفكرون فيها كيف يحصلون على نبيشة ، واستقر رأيهم أن يختاروا فارسين من بني عبس وفارسين من كنانة وفارسين من شيبان وكلفوهم أن يخرجوا باحثين في سر وخفية ليعلموا مكانه أو من استجار بهم من العرب ، فانطلقوا إلى ما كلفوا به جادين ، أما نبيشة فلم يستقر له قلب وأيقن أنه مطلوب فاستمر هائماً تتقاذفه القبائل طرداً واستنكاراً لفعلته ، حتى نزل على بني وائل، واستجار بفارسهم سنان بن خالد في ضراعة وذلة، وقال : لست خائفاً إلا من عنترة بن شداد ، فإنه لن يسكت عن طلبي ، وإن وقعت في يده فما لي منه مفر ، فقال سنان : لا تخف من أحد ، فقد أجرتك من كل طالب ، ولن يجرؤ عنترة أن يطلبك مني إلا أن يكون قد غرته قوته فيسبب له غروره أني أقتله شر قتله .

عرف الفرسان الباحثون مقر نبيشة ، ورجعوا إلى عنترة وأخبروه أن سنان بن خالد من بني وائل أجاره ، وأنه توعدك بالقتل إن طلبته ؛ فجمع عنترة جموعه وتدفقوا على بني وائل، وكان هؤلاءقد نشروا طلائعهم ليحملوا إلى قائدهم سنان نبأ قدوم عنترة حتى يبادروه بالقتال وقت مجيئه ، وحتى لا يأخذهم بغتة .

وصل عنترة إلى بني وائل فألفاهم مستعدين للقتال يقدمهم سنان ونبيشة بجانبه ، فلم يمهلهم ، وشنها عليهم غارة حامية وقفت رحاها عند قدوم الظلام ، وفي الصباح صاح فيهم عنترة : إن أردتم حقن دمائكم ، فأبعدوا نبيشة عن جواركم ، وإلا تفعلوا فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ، فبرز فارس منهم وقال : لا تطمعوا في نبيشة فقد أجرناه ، وإن أنتم أصررتم على طلبه فقد عرضتم أنفسكم إلى التهلكة ، فخرج إليه ميسرة وطعنه طعنة أردته قتيلا ، ونادى : هل من يبارزني من بني وائل ؟ ! فبرز إليه عبد الله بن سنان فصرعه ميسرة وقتله ، ونادى فيهم : هلموا يا بني وائل إلى هلاككم وقطع دابركم ! فأصابهم ذهول ورعب ، وذهبوا إلى سنان وقالوا له لقد جلبت علينا البلاء بإجارتك نبيشة وهو ظالم غادر وجبان لا يشعر ، فامتطى جواده وخرج للمبارزة ونادى : أنا الذي أجرت نبيشة ، ولا يزال في حمايتي وجواري ، فليبرز إليّ عنترة بن شداد لأفضّ بقتله هذا النزاع ، فما لبث أن جاءه عنترة يتوثب حماسة وقوة ، فلما رأى بنو وائل شدة وطأة عنترة هبوا

لمعونة سنان بن خالد ، وهب جند عنترة أيضاً ليصدوهم عما أرادوا ، وقامت ملحمة كبرى قتل عنترة فيها سناناً ، ورفع رأسه على سنان رمحه ، وأسر نبيشة وسلمه إلى بنى كنانة ليحرسوه حتى يذبحه على قبر ربيعة ، وفرت جموع بنى وائل فزعين تاركين أموالهم ونساءهم وعيالهم ، فنادى عنترة لقد أخذنا غريمنا وما لنا على بنى وائل ثأر فلا تتعرضوا إلى أموالهم ونسائهم وعيالهم ؛ ثم ارتحلوا ومعهم نبيشة والأسرى من قومه حتى كانوا على قبر ربيعة ، وحضرت أم ربيعة إلى عنترة وقبلته بين عينيه وشكرت له جميل معروفه ، وبدأ عنترة على مشهد من الجموع فذبح نبيشة على قبر ربيعة وجعل شيبوب يقدم له الأسرى واحداً فى إثر واحد حتى ذبحهم جميعاً ! فأقام عنترة على قبر ربيعة عشرة أيام ، ثم عزم على أن يرحل إلى دياره ، ولكن بنى كنانة أقسموا عليه أن يقضى معهم فى ديارهم أياماً ، فقبل رجاءهم ، ولبث معهم عشرة أيام فى عيش رضى وإجلال عظيم ، ثم ودعهم راحلا إلى أهاله ! وبعد قرابة شهر من هذا الرحيل ماتت أم ربيعة وزوجته وأخواته ، حسرة عليه . أما أخته التى تزوجها عنترة فلا تزال من الأحياء ، ولها حديث نذكره فى حينه ! وأما مفتاح عبد ربيعة فلم يطق صبراً على فراق مولاه ، وهام فى الصحراء على وجهه ؛ واستقر عنترة بين أهله وعشيرته وقد سكت عنهم الزمان مدة فعاشوا فى أمن وسلامة .

وذات يوم خرج للصيد عنترة وعروة بن الورد وبعض رجاله ، فرأى

غبرة كثيفة عالية قادمة من ناحية العراق ، فقال لعروة : ابعث إلى هذه الغبرة أحداً من رجالك ليأتينا بخبر عنها ، ولما عاد الرسول فرحاً قالوا له : جئتنا عاجلاً فرحاً ! فما وراءك ؟ ! فقال : ورائى خير وسلام ، هدية قادمة من كسرى إلى أبى الفوارس يقدم رجالها حاجب من حجابه ، وبعد استقبالهم ومظاهر الفرح بادية على وجوههم قال الحاجب لعنترة : إن كسرى يقرئك السلام ، وهو معجب بشجاعتك ومروءتك ، ويود أن يزوره غصوب ابنك ، لكثير إعجابه بشجاعته ، فقال : لكسرى عندنا ما يشاء ، وبعد ثلاثة أيام أقاموها فى حفاوة وإكرام منحهم الهدايا وودعهم وداعاً كريماً ، فرجعوا ومعهم غصوب فى ثلاثمائة فارس عبسى ، ففرح كسرى بهم ، وجعل غصوباً يجالسه ويسامره ، ثم سأله عن أبيه وانقطاع زيارته فقال غصوب : يهدى إليك أطيب تحية ، ويود أن يراك كل حين ولكن شغلته الحرب والتنكيل بالمعتدين الآثمين الذين هم نكد الحياة وقذى الإنسانية ، وعند سنوح الفرصة تجده لديك حاضراً .

٧

وذات يوم دخل على كسرى حاجبه وهو فى مجلسه وناوله رسالة فلما انتهى من قراءتها بدت على وجهه أمارات الغضب ، فسأله الموبذان عما

أغضبه فى تلك الرسالة فقال : إن قيصر الروم أنفذ الخراج إلينا هذا العام كعادته فاعترضه فى الطريق جماعة من العرب فنهبوا الأموال وقتلوا الرجال ، فماذا ترى ؟ فقال : نبعث كتيبة من جندنا تخلص المال وتأسر الرجال ، فإذا حضروا بين يديك قتلتهم وصلبتهم ليكونوا عبرة لغيرهم ، فقال : ليس لجندنا خبرة بدروب القفر ومسالك الصحراء ومساكن العرب ، وأرى أن يخرج إليهم غصوب وجماعته ، على أن نمده بالرجال والأموال والسلاح . فإذا أفلح ورد إلينا الخراج قلدته ولاية العرب وعزلت إياس بن قبيصة ، ولما سمع غصوب هذا الكلام قال لكسرى : سأخرج أنا ورجالى إلى تلك العصبة ، ولست فى حاجة إلى معونة أحد من جندك ، فلا تبتئس بنهب الأموال فإنا رادوها إليك وجاعلوك من الفرحين . فاطمأن كسرى وأمر الموبذان أن يعطيهم ما يحتاجون من الخيل والسلاح والمال ، وخرج غصوب ورجاله إلى وادى السيل الذى وقعت فيه الواقعة ، وهاك قصتها :

كان لعمرو سيد بنى كنانة عبد يقال له الغضبان ، ولما وجد فى عبده هذا شجاعة الأبطال وشدة المراس ، والتفوق فى ضروب القتال أدناه منه وقربه إليه ورفع منزلته على سائر العبيد ، وذات يوم رحل مولاه عمرو إلى بنى عامر فى بعض شئونه ، وفى غيبته أغارت عليهم فى الصباح خيل لبنى يربوع تحت إمرة قائدهم مالك بن سويد اليربوعى ، فساقوا أموالهم ورعاتها ، وطار نبأ هذه الغارة إلى الغضبان فأسرع

إليهم فى فرسان بنى كنانة وأدركهم قبل أن يبعدوا عن مضاربهم ، فقتلهم وقتل قائدهم مالك بن سويد وجعلهم يلوذون بالفرار ويهيمون من الرعب فى القفار ، ورد الأموال والرعاة ، وأعاد إلى بنى كنانة الأمن والسلامة والنجاة

ولما حضر مولاه عمرو وبلغه ما فعل الغضبان ببنى يربوع فرح به وفك رقبته وأمره على ثلة من جنده ، فامتد به الطموح إلى أن يغير بفرسانه هنا وهناك ، وحصل من ذلك على مال وفير ، وذات يوم جاءه عبد من عبيده وقال : هل أدلك يا سيدى على تجارة تغنم منها ربحاً كثيراً ؟ فقال : لك منى هدية سنية إن ربحت منها ، فقال : أرسل قيصر الروم إلى كسرى الجزية السنوية فى حراسة فرسان من بنى غسان ، وهم الآن سائرون بها فى وادى السيل ، وقل ما شئت فى هذه الجزية من كثرة المال والغلمان والإماء فلم يطق صبراً عليها وفر بفرسانه حتى أدركها فى وادى السيل ، وأعمل سيفه فى حماتها بمعونة فرسانه ، وأجلاهم عنها مشردين ، ورجع بها إلى دياره غانماً ظافراً ، وفر الهاربون من حماتها إلى إياس بن قبيصة وأخبروه ما فعل الغضبان بهم ، فأرغى وأزبد وصاح فى بنى طى أن اخرجوا إلى بنى كنانة . واستردوا الجزية ، فمن العار أن تسلب وتنهب فى وادى السيل وهى فى حوزتنا وحمانا ، وقد أنفذت إلى كسرى كتاباً بسطت فيه القول فى أمر هذه الجزية ، وهو لا شك غير ساكت عن طلبها من غاصبيها ولقد تعلمون أن غصوب ابن عنترة عنده ، وربما بعثه فى فرسانه وأمده بما يحتاج إليه من سلاح



الغضبان يقتل الأسد

وخيل وجند فكانوا عوناً لنا على استرداد الجزية وكان لنا عند الملكين كسرى وقيصر الذكر الحسن والثناء الجميل .

أدرك إياس بن قبيصة الغضبان وفرسانه وهم عائدون غانمون فنادى فيهم أن قفوا أيها اللئام الأوغاد وردوا ما غنمتموه من الجزية ، وإلا رددناها بسيوفنا وجعلناكم مثلا وعبرة ، فلم يطق الغضبان صبراً على هذا النذير وأوقدها ناراً حامية ، أكلت كثيراً من فرسان إياس بن قبيصة ، حتى لمسوا دنو الهزيمة بأيديهم ، وبينما هم فى حيرة من أمرهم إذ جاءهم غصوب بن عنترة لاستخلاص الجزية ، ففرح إياس بقدومه ، ولمع بريق النصر فى عينه ، وقص عليه ما فعله الغضبان بهم فقال له : طب نفساً ياإياس فسأرد عليك اعتبارك ، وأجعلهم يترامون على أقدامك ، ثم قامت حرب طاحنة ، وملأت السيوف الأجواء صليلا ، وغرقت الرءوس فى بحار من الدماء ، واشتد الكرب وعم البلاء ، وكانت الغلبة للغضبان ، وأسر غصوب بن عنترة وإياس بن قبيصة وكثير من فرسانهما ، وولى بقية جنودهما هرباً ، وفرح الغضبان بنصره ، وساق الأموال والأسرى إلى دياره ، وكان له عبد جرىء شجاع عداء يقال له الخذروف ، فجعل إياساً وغصوباً فى حراسته ليسد فى وجهيهما أبواب الفرار والهرب ، ولكن إياساً تقدم إلى الغضبان وقال : لا ينفعك أسرى وحملى معاك ، والدهر حول قلب ، وإن أنت سرحتنى فقد أسرتنى بإحسانك وكنت عوناً لك وصاحباً ؛ فضحك

الغضبان وقال : ذلك معروف لا يذهب بين الله والناس ، فاذهب إلى أهلك فأنت طليق ، وأمر أن يعطى جواده وعدة قتاله فشكره وانصرف ، وكذلك منّ على غصوب بتسريحه ومنحه جواده استجابة لرجائه .

كتب الملك الأسود إلى كسرى أن إياساً وغصوباً أسرهما الغضبان وهزم جيوشهما ثم منّ عليهما بالعتق ، وفاز بالخراج جميعه ولم يستطع أحد أن يسترد شيئاً منه . فلما فرغ الوزير من قراءة كتاب الأسود الذى حمل إليه نبأ تلك الهزيمة دهش كسرى واضطرب وبدأ الغيظ على وجهه وقال : لا بد من قتال بنى كنانة والانتقام منهم ، فقال الوزير : الأمر فى حاجة إلى تدبير ، فقد سألت عن الغضبان وقومه فقيل إنهم يسكنون أرض السوداء ، وهى مقفرة ذات جبال وعرة ، ومياهها تكاد تكون معدومة ، وإن سرنا إليهم فيها فقد عرضنا جيوشنا للهلاك ، فقال كسرى : وماذا ترى ؟ فقال : أن تنتدب لهذا الأمر عنترة بن شداد ، فهو الذى يرد إلينا الخراج ويدوخ ألف فارس كالغضبان ، وهو الذى يسره أن يمنحك الجميل ، فهدأت غضبة كسرى وانبسطت أسارير وجهه .

أما الغضبان فإنه جعل يطوى الفلا راجعاً بمغانمه إلى دياره ، حتى كان فى أرض الكلأ ، وكانت ذات تلال ووهاد ، تخيف السالك ، ويتيه فيها الرائد ، وما كادوا ينسلون منها حتى اعترضهم أسد كبير كأنه البعير ، زئيره كأنه الرعد فاقشعرت أبدان الرجال ، ودارت أعينهم فى

رءوسهم فزعاً ؛ ولكن الغضبان ترجل وسار إلى الأسد بسيفه وابتدره بضربة فى رأسه جعلته نصفين ، فزاده هذا فى أعين رجاله إكباراً ومهابة ! وهناك فى ديارهم رأى الناس ما غنم من الأموال ، وعلموا أخباره فى حروبه ، وعلموا قتله للأسد بسيفه ، فاعتزوا به ، وكان عندهم محط الأمل ومبعث الرجاء وحماية الأحياء ، وسأل الغضبان عن عمرو صاحب ولائه فقيل : خرج بجنده ليغزو بنى تميم فى عقر دارهم ويثأر لنفسه منهم ، وبعد بضعة أيام قضاها فى انتظار عمرو وتوزيع المغانم وجد جنداً من بنى كنانة يسرعون إلى الديار فزعين ، فسألهم عن حالهم فقالوا : سامنا بنو تميم ذلة وقهراً ، وقتلوا مليكنا عمراً ، فماجت الأحياء غما وحزناً ، وجزعت زوجته لفقده جزعاً أليماً ، فواساها الغضبان وقال : الزمى خباءك واستريحى فلن أسكت عن بنى تميم حتى أذيقهم الموت .

وركب الغضبان جواده ونفر فى جيش من بنى كنانة ، ودهموا بنى تميم فى ديارهم على غرة ، فجزوا منهم الرقاب ، فلم يجدوا لهم ملجأ إلا أن يفروا إلى الصحراء ، ثم رجعت طائفة منهم إلى كبار بنى كنانة يحملون شارات السلام ، ورجوهم أن يقبلوا بنى تميم فى ذمامهم وحماية الغضبان قائدهم ، فحمل بنو كنانة رجاءهم هذا إليه ، فقال : أنتم الموالى وما أنا إلا تابع لكم والأمر لكم ، فإن أعطيتموهم عهدكم فسيفى لهم كما أنه لكم ؛ فشكروا له رجولته وتواضعه وأمروه عليهم ، وعقدوا مع بنى تميم عقد الولاء والإخاء .

* * *

وأما غصوب فإنه رجع إلى بنى عبس ودخل على أبيه وقص عليه قصته من بدء خروجه إلى زيارة كسرى إلى أن رجع وبدأ يقص قصته ، وأطنب فى بيان مواهب الغضبان ، من قوة البأس وغلبة الأقران ، وقال : ليس له فى الدنيا نظير سواك ، وإن قدر له أن يغلب فلن يغلبه أحد غيرك ، فقال عنترة : إنا نخوض الميدان بائعين أنفسنا للواجب والحق ، وكانت عبلة على مسمع من هذا الحديث فقالت : أخشى أن يكون الغضبان هذا هو العقاب الذى جاءك فى المنام فأزعجك ، وقد سمعنا عن الغضبان من ضروب الشجاعة والإقدام ما بلبل الأفكار ، وأقلق الصدور ، وقد أقسمت عليك بالبيت الحرام ألا تقابله ولا تحاربه ، فقال : يفعل الله ما يشاء ويختار .

وكان لحديث غصوب فى نفس الربيع وثلته الحاقدين على عنترة وقع جميل ، إذ توقعوا لعنترة هلاكاً على يد الغضبان .

* * *

خرج الغضبان فى أيام إقامته بالديار لصيد والقنص ، فمر ذات يوم على مضارب جيرانه فرأى فيها فتاة قوامها غصن رطيب ، يشع السحر من عينيها الكحيلتين ، ويبسم ثغرها عن لؤلؤ منظوم ، ويتوقد وجهها جمالا ونضرة تحت شعر مرسل كأنه الليل ، تخطو خطو القطا ، وتتمايل فتميل

معها القلوب — رآها الغضبان — فتعلق بها قلبه ، وأصر أن يطلبها لنفسه ، وكانت بالقرب منه عجوز جاوزت السبعين فسألها : من هذه الفتاة ؟ ومن أبوها من أبطال العرب وأمرائهم ؟ فقالت : هذه دعد بنت المنهال سيد هذه القبيلة ؛ فغلبت عليه سكرة الهوى وناداها : على رسلك يا دعد ، فوقفت ناظرة إليه متأملة ؛ فقالت صواحبها من البنات : إن الذى يناديك الغضبان فارس بنى كنانة الذى أباد جيش كسرى ونهب جزيته ؛ فلم تنطق بكلمة واستأنفت مشيها غير عابئة ، وانصرف الغضبان إلى صيده ، وهو يفكر فى دعد ثم رجع وهو شارد العقل ، لأن الفتاة ملأت بحبها صدره ، وملكت عليه مشاعره ، وأدرك عبده الخذروف أن شيئاً فى نفسه يشغله فسأله : ماذا بك أيها المولى الكريم ؟ ! فقال : إن بى من حب دعد بنت المنهال ما لا طاقة لى بحمله ولا صبر لى عليه ، فقال الخذروف : أنفذ إليها إحدى العجائز لتأتى إليك بخبرها ، فإن كان بها من الحب مثل الذى بك فاخطبها من أبيها وأبشر بكل خير ، فلك فى نفوس العرب منزلة سامية ، ويسرهم أن يعيشوا فى ظلال من سيفك وحمايتك ، فأرسل إليها العجوز ، ولما رجعت إليه قالت : دعد تقرئك السلام وهى تحمل لك فى قلبها مثل الذى تحمل لها ، فاخطبها من أبيها . ففرح الغضبان وقال فى نفسه : سهل الأمر ويسر ، وسأعالجه فى طمأنينة ومهل .

لم يعد أمر الحب سراً مكتوماً ، فقد ذاع بين الأحياء وعلم أبوها أن

الغضبان أحب ابنته وأنه مصر على طلبها ، فاغتم واضطرب وقال فى نفسه : لو كان الغضبان من ذوى الحسب والنسب لفرحت بنسبه ، وإن أبيت عليه زواجها منه الآن عرضت نفسى لسيفه ، وأوقعت ابنتى فى أسره ، وليس لى مخلص من هذه الورطة إلا أن يخطبها فارس من فرسان العرب ليقينا شر هذا العبد اللئيم .

وبعد أيام أرسلت دعد إلى الغضبان إحدى جواريها فقالت له : سيدتى تقرئك السلام وتقول : إن أبى أتاه رجل من بنى مازن فخطبها لنفسه ، وفى نفس والدى رغبة فيه وميل إليه ، وعزم على التعجيل بالزواج فلا تهدم الأمل بإهمالك وتراخيك إن كنت صادقاً فى محبتك حريصاً على وفائك . فقال لها : أقرئيها منى السلام ، وبلغيها صدق المحبة والحرص على الوفاء ، وأن سيفى حرمها على أى رجل غيرى .

وكان المازنى قد نزل على أحد المشايخ من بنى كنانة ليستريح عنده من سفره ، ثم يذهب إلى المنهال ليستأنف الحديث معه فى خطبة ابنته ، فترصده الغضبان فى طريقه إلى المنهال ولقيه ، فأوقفه وقال له : خير لك أن تحقن دمك ، وتفر بنفسك إلى أهلك وقومك ، وتترك لى بنت المنهال ، فقال : كيف تمنعنى عن خطبة فتاة فى سوق الزواج يأتيها كل طالب ، والخيرة فى ذلك لأبيها وأهلها ؟ فقال الغضبان : لا أمنعك حقاً ، ولكنى أراك لست أولى بها منى ، على أنى أسوى بينك وبينى ، وأطلبك إلى مبارزتى ،

وهى لمن غلب صاحبه منا ، فقال : حكمت فعدلت . وقامت المبارزة ، وحضر الفرسان ومشايخ بنى كنانة ليشهدوها ، ثم انجلت بأسر المازنى ، وهم الغضبان بقتله ، ولكن مشايخ بنى كنانة حالوا بينه وبين قتله وقالوا : ليس من المروءة أن ينزل علينا ، ويأكل طعامنا ، ثم نقتله ، فأخل سبيله من أجل ذلك ، فقال الغضبان : قد وهبته لكم ، ثم جز ناصيته وأطلقه . وبلغ ذلك أبا دعد فقال لزوجه : لقد بليت بهذا الغضبان الذى أبطل وجودى ، وحبس عليه بنتى ، فقالت وأين البلية فى ذلك ؟ ! إنه كفء كريم ، وأرى أن نزوجه من ابنتى دعد فقل أن تجد فارساً شهماً مثله .

* * *

ولما هم أن يخطبها الغضبان من أبيها جاءه أصحابه الفرسان الذين كانوا يغيرون معه للكسب والربح وقالوا : شغلتك دعد عنا ، وأغفلت الإغارات التى نعيش على مغانمها ، وقد اشتد بنا الفقر والحاجة ، فقال : هيابنا الآن للإغارة ، فعسى أن نرجع منها بما يدفع عنكم شدة الحاجة ، فمصلحتكم أجدر عندى بالتعجيل والعناية ، وكانت إغارتهم على بنى كهلان ، فغنموا كثيراً من أموالهم بعد أن قاتلوا رجالهم ورجعوا فائزين ، فوجدوا بنى كنانة فى حزن عميم فسأل عن ذلك فقيل له : حضر منازل المازنى الذى جززت ناصيته وأطلقته ومعه جمع غفير من فرسان قومه ، وانتهزوا فرصة غيبتك فى هذه الغزوة وأطبقوا على مضاربنا وأعملوا سيوفهم فينا حتى وقعت

دعد فى أيديهم فحملوها وفروا إلى ديارهم ، فقال : ثكلته أمه ! وستكون هذه الغزوة عليهم حسرة ؛ ثم ذهب إلى أبيها فابتدر الغضبان قائلا : لقد كنت سبباً فى فضيحتى وسبى ابنتى ، وهذا الغم الذى شمل الأقارب والأباعد . فقال : إن أنت زوجتنيها خلصتها وثأرت لكم ، فقال : هى لك فافعل ما تشاء ، فقال : ومهرها كما تقترح ، فقال : مهرها خلاصها من أيدى خاطبيها . وانتهيا على ذلك ، وأشهدا عليهما مشايخ القبيلة .

أما منازل المازنى فقد تألم قومه لما فعل ، وقالوا له : لا تكن سبباً فى خراب ديارنا وقتل رجالنا ، فإما أرجعت الفتاة إلى أبيها وإما رحلت عنا بها مطروداً مذموماً ؛ فخرج بالفتاة إلى سعيد بن عامر سيد بنى كندة وقص عليه ما فعله ، وطرد قومه إياه ، واستجار به ، فأجاره وأسكنه فى دياره .

خرج الغضبان فى سبعين فارساً إلى بنى مازن ، فالتقوا به وقالوا : لا تؤاخذنا بما فعل منازل ، فقد لمناه وطردناه إلى بنى كندة ، وإن أردتنا أن نذهب معك لقتالهم وقتاله فنحن على استعداد ؛ فشكر لهم موقفهم ، وولى وجهه بفرسانه شطر بنى كندة ، وسامهم خسفاً وقتلاً ، وأيقن ملكهم أن الهزيمة واقعة بهم ، ولكنه أصر على استمرار القتال مهما تكن عاقبته ، ولم تزل الحرب على أشدها حتى أسر سعيد بن عامر سيد بنى كندة ، وأحس جنده البوار ، فقالوا لمنازل : لقد كان قدومك إلينا أشأم قدوم وأفزعه ، فإما خرجت إلى الغضبان وقاتلته ودفعت عنا شره ، وإما أخذنا

الفتاة وسلمناها إليه ، فقال : غداً أبارزه وآتيكم برأسه على سنان رمحى ، فأخبروا الغضبان بذلك ، ووقف القتال إلى صباح الغد .

لم يلبث منازل أمام الغضبان ساعة فى المبارزة حتى غلبه وأسره ، وأوثق الخذروف عبد الغضبان كتافه ، وأنذره قتلا فاضحاً إن لم يسلم إليه فتاته ، فقال منازل : سأسلمك الفتاة ، ولكن لى رجاء عندك : أن تمن علينا بإطلاق سراحى وسراح سعيد بن عامر سيد بنى كندة ، فأحضر الغضبان سعيداً وأخلى سبيلهما ، وأحضرت إليه الفتاة مكرمة ، ووهب له سعيد من الأموال والأنعام شيئاً كثيراً ، ورجع الغضبان إلى دياره ظافراً بفتاته وأعطى المنهال ابنته ، ومنحه مالا جزيلا ، وأسبغ فضله على أنصاره وجنوده .

وفى غد اليوم الذى حضر فيه جمع مشايخ العشيرة وذهب إلى المنهال وخطب ابنته فلم يجد أبوها مفراً من الاستجابة له كرهاً ، ولكنه لجأ إلى حيلة خطيرة يتخلص بها منه فقال : هنيئاً لك دعد أيها الفارس الكريم ، فليس أحد أولى بها منك ، غير أنى أود شيئاً يعلى شأنها ويرفع قدرها بين أترابها ، وأعتقد أنه عليك هين ، فقال : وما ذاك ؟ فقال : أن تجعل عبلة بنت مالك بن قراد وزوجة عنترة بن شداد خادمة لدعد ليلة زفافها والليالى السبع التالية لها ، فقال : وما تريده فوق هذا ؟ فقال : ليس لى بعد ذلك طلبة إلا سلامتك وهناءتك بدعد زوجتك ، فشكره وانصرف ، واعتقد المنهال أنه إن ذهب إلى عبلة فليس براجع إلا خبر قتله ، وبذلك يكون قد أفسح

لابنته المجال ، ليتقدم إلى خطبتها من يشاء من فرسان العرب الذين يمتازون بما لهم من حسب ونسب .

وفى الصباح تهيأ الغضبان للرحيل ولكنه لم يجد من أنصاره إلا ثلاثين فسأل عن بقيتهم فقالوا : اعتذروا عن الخروج هذه المرة خوفاً من عنترة ، فأقسم ألا يخرج معه أحد إلا عبده الخذروف ، ثم ودعهم معلناً أنه لن يعود من بنى عبس إلا بعبلة ورأس عنترة ، ولما وصل وجدهم فى حلل مبعثرة ، فوقف حائراً مفكراً، على أية حلة يغير ؟ وبينما هو غارق فى تفكيره وحيرته ، إذ مر به فارس ممسك زمام ناقة عليها هودج ويتحدث إلى التى فيه ، فصاح به أن قف أيها الفارس وانزل عما لديك من ظعينة وجواد وسلاح ، واذهب إلى أهلك سالماً ، فاستأنف الفارس سيره غير عابئ بما سمع ،فوثب الغضبان عليه واقتلعه من ظهر جواده وضرب به الأرض ضربة أفزعته ، وأسرع إليه الخذروف فربطه فى حبال الأسر ، ثم سأله الغضبان : من أنت من بنى عبس ؟ لعلك عنترة بن شداد ، إذ نفخ الغرور فى أذنيك فسرت غير عابئ بمن يكلمك ، ولا خائف منه على نفسك ومن معك،فقال:لا أرضى أن أكون عنترة ، أنا الربيع بن زياد أخو عمارة ، وأسرعت زوجته وابنته فنزلتا من الهودج وأقبلتا إلى الغضبان وقالتا : لاتفجعنا فيه بقتله ، فليس لنا كافل غيره ، وكانت ابنته فاتنة الجمال ساحرة النظرات ، فعشقها ورغب فى زواجها ــ فقال : أنت

طلبتى وبك أنال بغيتى من قدومى ، وإن أنت رضيت بى بعلا لابنتك قضيت مأربك وحكمتك فيمن تشاء من العرب ، فأدرك الربيع أنه فتن بابنته ، وأنه فارس لا يطاق ، وأنه يبغض عنترة وعزم على أن يسخره فى قتل عنترة ، جاعلا وسيلته فى ذلك أن يرضى عن زواجه من ابنته التى فتنته ، وقال : ومن أنت أيها الفارس البطل ؟ ! قال : أنا الغضبان ، فارس بنى كنانة ! فقال الربيع : لقد وجدت فيك طلبتى ، ويسرنى أن تكون زوجاً لابنتى ، ومهرها أن تنصرنى على عدوى ، فقال : ومن عدوك هذا ؟ فقال : عنترة بن شداد ، فقال : وما جئت إلا طالباً رأسه وسبى زوجته عبلة ، وقص عليه قصته ، ففرح الربيع ومد يده إليه واتفقا على الوفاء ، ثم رجع به ، وأقام له منزلا بين عشيرته وإخوته ، ولبث فى ضيافته ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع قال له الربيع : إن ابنتى تحب أن تعجل بالزواج منك ، ولكنها أبت أن تنفذه حتى تأتيها برأس عنترة عدو أبيها ، وقد حاجتها فيما طابت فقالت : لا يهنأ لى عيش حتى أرى أبى مطمئن القلب لا يقض مضجعه عدو أو خصيم ، فقال الغضبان ، أكرم بها من فتاة بارة بأبيها ، وما عليك الآن إلا أن تعرفنى به لأعجل بقطع رأسه ، فإنى ما رأيته من قبل، فقال : لك ذلك ، وسأتحين لك أول فرصة لأعرفك شخصه .

وجعل الربيع يترقب غزوة يخرج فيها عنترة ليترصده الغضبان فى

طريقه ويقتله ، فجاءه ذات يوم عبده حابس بن عابس وأخبره أن عنترة خرج اليوم لغزو بنى تميم ، فنهض الربيع فرحاً إلى الغضبان وألقى فى أذنه نبأ عنترة ، وقال : تلك فرصتك إلى لقائه فى البيداء وقد لا تتاح لك مرة ثانية ، فإن أردته فاركب جوادك واكمن له فى طريقه ، فقال الغضبان : وأحب أن تكون أنت وكبار إخوتك معى لتروا ما أنا فاعل بعنترة ، فقال وكيف نقعد عن صحبتك ؟ ! ثم خرج خفية ، ومعه الربيع وعمارة ، وكمنوا فى مكان يقال له رأس الأجمة ، وهو مكان لا بد لعنترة أن يجتازه غادياً أو رائحاً ، ولبثوا فيه ليلة ، ثم ظهر لهم فى صباحها أسد ضخم كأنه الثور ، فنهض الغضبان وجرد حسامه وشقه به نصفين ، فقوى فى نفس الربيع الأمل فى أن عنترة مقتول بيد هذا الفارس الجبار العتيد ، وقال : أريد مثل هذه الضربة فى عنترة ، فقال سأريكم ما يسركم ، وجلسوا ينتظرون عودة عنترة من غزوته .

* * *

دوّخ عنترة بنى تميم وقتل كثيراً منهم وغنم أموالاً وجمالا وعاد هو وفرسانه يستبشرون بفوزهم وبما ربحوا حتى أشرفوا على ذلك المكان المسمى رأس الأجمة ، فخرج إليهم الغضبان كأنه مارد من جان، وصرخ صرخة مدوية وقال : جاءكم الغضبان فارس بنى كنانة ، وستذوقون من سيفه الموت ، أو تفرون من وجهه، أو تخرجون لمبارزته، فنظر إليه عنترة نظرة



عنترة وابنه الغضبان يتصارعان وبنو عبس ينظرون

ملأت قلبه عطفاً وشفقة وقال لفرسانه : ابرزوا إلى هذا الفارس ، وحذار إن تمكن منه أحدكم أن يقتله ، فإن قلبي قد ملئ عطفاً عليه وشفقة به ، ولا أدرى سبباً لهذه الحال ، ولكنى ألمسها فى فؤادى كما ألمس الشيء بيدى ، فبرز إليه فرسان من بنى عبس وهو يغلبهم ثم يتركهم يذهبون إلى جماعتهم ، وانقضى النهار على هذه الحال وأرجئت المبارزة إلى الغد ؛ وبات الربيع فرحاً بنصر الغضبان ، وجعل يثنى عليه ويثبت فؤاده ، ويبشره بفوز عظيم ؛ فقال الغضبان : ما رأيت فرساناً كفرسان بنى عبس ، فقد لاقيت منهم كل شدة وبأس ، ولست أدرى ما ينجلى عنه نهار الغد ، فقال الربيع : إنك ميمون الطالع ، والنصر باد على سيفك كالنور الساطع ، فنم ثابت القلب ، مطمئناً إلى النصر ، وإن ظفرت بعنترة فعجل بقتله ، واحذر أن تتركه يحيا بين يديك لحظة ، فقال : يفعل الله ما يشاء ويختار .

وفى الصباح نشبت مبارزة عنيفة بين الغضبان وفرسان بنى عبس ، ولما رأى عنترة ظهوره عليهم وقهره إياهم ، وفرارهم من بين يديه خائبين نزل إلى الميدان لمبارزته ، فدارت رحاها دورات مفزعات ، وبنو عبس فى موقف حرج بين اليأس والرجاء ، وتعب الجوادان فما استطاعا كراً ولا فراً فترجلا واشتد كفاحهما ، وعثرت رجل عنترة بحجر فوقع على ظهره ، فانكب الغضبان على صدره ، ولبثا على هذه الحال مدة ، وأيقن بنو عبس أن عنترة قد انتهى أمره ، ولكنهم ما لبثوا أن سمعوا صيحة دوت فى الآفاق ،

ورأوا عنترة ناهضاً وقد رفع الغضبان بيديه ، وضرب به الأرض ضربة كادت تقضى عليه ، وكان شيبوب يبارز الخذروف حينئذ ، فغلبه شيبوب وانفلت من بين يديه وهرب منه فى الصحراء ، ولما رأى أخاه قد انتصر أقبل إلى الغضبان وربطه فى قيود الأسر ، فاغتم الربيع وأخذ أخاه عمارة وولى هارباً .

وأما عنترة وفرسانه فقد استأنفوا سيرهم حتى كانوا فى ديارهم ، وفرح القوم بنصرهم وبما غنموا . وفى صبيحة ليلتهم التى قدموا فيها أمر عنترة أخاه شيبوباً أن يحضر إليه الغضبان . فلما حضر سألته عبلة : من هذا ؟ فقال : الغضبان فارس بن كنانة ، ثم جرد سيفه وهم بقتله ، ولكن عبلة تشفعت له قائلة : كيف تقتل فارساً جديراً بعفوك وكرمك ؟ ! أنسيت معروفه الذى أسداه إليك ؟ ! أنسيت أنه أسر ابنك غصوباً ثم عفا عنه وأطلقه ؟ ! أما ترى أنه يشبهك وكأنه أحد أبنائك ؟ ! ألا تعلم أن العرب ستقول : لولا أن عنترة خافه ما قتله ؟ ! فابتسم عنترة قائلا : كأنك تقرئين ما فى نفسى ، ولقد أشفقت عليه وأعجبت به منذ رأيته ، ولا أدرى مبعث هذه الشفقة ، وإن كنت أعرف مبعث هذا الإعجاب . وأمر شيبوباً أن يعود به إلى محبسه .

أما الخذروف فإنه طار إلى بنى كنانة وأخبرهم أن عنترة أسر الغضبان فى رأس الأجمة وحمله إلى دياره ، فأسفوا عليه وحزنوا ، أما المنهال فإنه

تنفس الصعداء وقال : الحمد لله الذى أراحنا منه ، و باعد بيننا وبينه ، وكفانا شره ، فقالت ابنته دعد : تلك شماتة كاذبة ، وأمنية خاطئة ! فما علمنا فارساً شهماً مثله ، إلا أن يكون عنترة الذى أسره ، وما عليه من حرج أن يكون ابن هذا أو ذاك فالمرء بعمله لا بحسبه ونسبه ، و إن قتل الغضبان فإنك ملاق من بنى كنانة عسراً وضيقاً ، لأنك أنت الذى أرسلته إلى عنترة بتعسفك فى الطلب ،وتكليفه أن يحضر لخدمة ابنتك سيدة كريمة ، بنت سادة كرام ، فأذهب هذا القول عنه سكرته ، وشارك قومه فى الحزن عليه مشاركة ظاهرة .

* * *

وخشيت سروة أم الغضبان أن يصيبه من بنى عبس أذى ، فأحضرت الخذروف إليها وأمرته أن يسير بها إلى عنترة لتدرك ابنها ولما يمزق ، فركبت فى هودجها وقاد الخذروف ناقتها حتى أناخها أمام بيت عنترة ، فنزلت سروة من هودجها وصاحت مستغيثة ، فاجتمع من حولها رجال الحى ونساؤه وسألوها : ما بالك أيتها السيدة الكريمة ؟ ! فقالت : مظلومة أتت هذا البيت مستجيرة بصاحبه ، وكانت عبلة مع زوجها فى راحة الهجير ، فخرجت إليها وقابلتها مقابلة كريمة ، وخففت من فزعها وبكائها وقالت : ما دمت قد استجرت بهذا البيت فقد سلمت وبلغت المنى ، فاكشفى لنا عن ظلامتك ومبعث كربك ؛ فقالت : إنى امرأة بعيدة الدار قليلة

الأنصار ، وقد طويت الفجاج والقفار من أجل حاجة لى عند ابن عمك عنترة . فابتسمت قائلة : قصدت كريماً لا يخيب لديه الرجاء، فما حاجتك لديه ؟ فقالت : أود أن ألقاه وأتحدث إليه . فأسرعت عبلة وقصت على عنترة أمر هذه السيدة ، فقال : أحضريها لأسمع منها ما أتى بها إلينا ، فلما كانت سروة بين يديه قالت : أنا سروة زوجتك ، أنا أم الغضبان الذى وقع فى أسرك ! فعجب عنترة وقال : كيف ذلك يا سروة ؟ ! فقالت : ألا تذكر أنك لقيت أبى — عميراً الكنانى — وأنت غاضب على عبلة ابنة عمك ، وقتلت إخوتى ، وخلصتنى من التابع الجنى الذى كان قد اعترانى بسوئه ، وأعطيتنى حجاباً كان لصديقك مقرئ الوحش ، وها هو ذا فى عضد ابنك الغضبان ؟ ! فهل يطيب قلبك أن يكون الغضبان ابنك حبيس أسر مهين ؟ ! وكان شيبوب قد دخل معها إلى أخيه واستمع لما قالت ، فأمره عنترة أن يأتيه به ، فلما دخل عليه شيبوب ابتسم فى وجهه وقال : لقد أصبحت من بنى عبس لحماً ودماً ، فأنت ابن أخى عنترة ، وأنا شيبوب عمك وأمك سروة بنت عمير الكنانى ، وسآخذك الآن إلى أبيك وأمك ، لتلتقى بهما وأنت حر كريم ؛ ثم حل وثاقه وانطلق به إلى عنترة ، واعتنقا عناقاً حاراً ، واحتضنته أمه وقبلته وقالت : أنا أمك سروة ولست مولاتك كما كنت أقول لك ، وأبوك عنترة هذا ، ثم قصت عليه أمرها وقالت : وأين الحجاب الذى أهديته إياك ، فقال : ها هو ذا ،

فقالت : ناول أباك إياه ، فلما أخذه عرفه وتيقن صدق سروة ، فأمر أن تقام المضارب لها ولابنها وجعل أمواله لهما ، ثم تقدم إليها شيبوب فسألها عن الجارية التى كان قد تزوجها ، فقالت : ولدت منك هذا الخذروف ، فهو ابنك ومن لحمك ودمك ، فأقبل عليه شيبوب واحتضنه وقال : لعلك أنت الثعلب الذى انفلت من بين رجلى فى المنام ، وذاع هذا الخبر فى الأحياء ، وهنئوا عنترة بابنه الفارس العظيم ، وجاء الربيع فهنأ عنترة مخفياً حقده وعداوته ، ولما نظر إليه الغضبان ابتسم ابتسامة مرة وأطرق برأسه ، كأنه يخفى شيئاً فى نفسه ، ولما انفض القوم سأل عنترة ابنه الغضبان عن ابتسامته وإطراقته ، فقص عليه ما كان من الربيع بن زياد معه ، فقال له : هذا الربيع وإخوته من ألد الأعداء لأبيك ، وهم عائشون بيننا نحميهم بسيوفنا وقلوبهم تستعر حقداً علينا ، ووجوههم تفيض بالبشر رياء ونفاقاً ، وقد لمست ذلك بيدك ، فعرض الغضبان على أبيه أن يقتله فقال له : إنه من بنى عبس ، وصهر الملك قيس ، وليس بضمائرنا أن يعيش على عداوته وكراهيته لنا ، فاصفح الصفح الجميل ، فإن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله ، وهكذا اطمأن بعنترة وأبنائه وأهله المقام ، وبعد أيام ظهرت على الغضبان أمارات الهوى فعرفها عنترة وسأله عما فى نفسه ، فقص عليه أمر دعد ، وما طلبه أبوها من سبى عبلة ورأس عنترة ، فقال أبوه : لن تمضى أيام حتى تكون دعد زوجة لك تنعم بها فى ديار أبيك ، ثم أمر أن تعبأ

الجيوش لغزو بنى كنانة .

* * *

وكان المنهال قا أتاه خال الصعب ملك بنى الريان فى ثلة من الفرسان ، فلما ضمهم مجلس العرب وساداتهم التفت إلى المنهال وقال : إن الصعب ابن اختى ملك بنى الريان راغب فى زواج ابنتك دعد ، وقد بعثنى إليك خاطباً ، وقد علمت منه أنه لن يتركها وإن أفنى فى سبيلها كل قريب وبعيد ، فقال المنهال : تلك خطبة مرّة ، وليس لها إلا الإباء والجفوة ، وابنتى دونها سيوف وأسنة ، فبلغ ابن أختك ما سمعت ، وليفعل ما أراد . وانفض المجلس وذهب المنهال إلى ابنته فأخبرها بما جرى فقالت : كنت جديراً بإجابتك هذه لو أن الغضبان معنا ، وليس لنا الآن إلا أن نرحل إلى الملك الأسود أخى النعمان لنقيم فى حمايته وجواره ، وننجو بأنفسنا من نكد الحرب وأهوالها ، ولو أنك زوجتنى بالغضبان ما وقعت فى هذه الورطة . فنزل على رأيها وهم بالرحيل ولكن قومه استمهلوه وقالوا : اصبر حتى ينجلى أمر هذا الملك ، فإن وجدنا أنفسنا لا طاقة لنا بقتاله رحلنا جميعاً إلى أحد الملوك وأقمنا فى جواره ، وقد يكون أمره يسيراً علينا فلا يضطرنا إلى هجر ديارنا .

لم يعجب الصعب ملك بنى الريان إجابة المنهال فنفر إليه فى خمسة آلاف فارس وأوقع به وبقومه هزيمة مؤلمة ، وأسر المنهال وقال له إن أنت

زوجتنى ابنتك سلمت وسلم الباقون من قومك ورددت عليكم أموالكم وأسراكم ، فقال : ابنتى ملك يمينك ولك بعد هذا ما تشاء . فأمر أن ترد الأموال وتطلق الأسرى وأعلن سلماً وإخاء ، ودخل الديار وعقد جلسة من المنهال وكبار قومه ، وتعاقدوا على أن يتزوج الصعب بنت المنهال وأرادوا أن يزفوها إليه، ولكنه أبى أن تزف إليه قبل أن يعطيها صداقها، واستأذنهم أن يعود إلى دياره ثم يرجع إليهم بمهرها ، فودعوه فى حفاوة وتكريم ، وبعد أيام عاد إليهم يحمل أموالا طائلة تليق بمقامه بين العرب كملك عليهم وسيد من ساداتهم ، وقامت ولائم الأفراح وزفت دعد إليه وسار بها إلى أهله فى دياره .

وبينما هو سائر فى طريقه اعترضهم سرحان بن بكر الخثعمى فطالب إليهم أن ينزلوا إليه عما معهم من الأموال وإلا أخذها بحد السيف ، فعز على الصعب أن يعترض سبيله أحد وقال : امض لشأنك أيها المغرور وإلا جعلت لحمك طعاماً للوحوش والطيور ، فلم يحتمل سرحان هذا الوعيد ، وأعمل سيفه فيهم وأخذ يصرع كل جبار عنيد ، فقتل ملكهم وأمعن فى مطاردتهم مخلفين أموالهم والمنهال وابنته وأمها فى حزن شديد .

* * *

سار عنترة بجنوده إلى بنى كنانة ليأتى بدعد إلى ابنه الغضبان ، فلما أوشكوا على القرب من ديارهم استأذن الغضبان أباه أن يسبقهم ليرتاد القوم

ويرجع بأخبارهم ، ونشط الغضبـان فى سيره فالتقى بسرحان هذا وجماعته ، فطمع فى نهب أموالهم ليوزعها على جند والده ، فناداهم أن قفوا أيها العرب وخلوا ما معكم من مال ونشب ؛ ورأته دعد من هودجها وعرفته ، فرفعت سجافه وبانت له قائلة : أنا دعد بنت المنهال ، وهذه أمى ، وهذا أبى ؛ وقد حل بنا هذا الأسر وهذا الهوان ، فأخذته الغيرة وخاض فى وسطهم بجواده وسيفه ، وجعل يقتلهم ويشردهم ، ولما أصاب سيدهم بطعنة جرحته وأسقطته عن جواده تحمسوا واجتمعوا عليه وهو يلقاهم بثباته وسيفه ، فكبا جواده ، ووقع على الأرض من كبوته ، فأسرعوا إليه قبل نهوضه وقادوه أسيراً إلى قائدهم الجريح ، فقال لأصحابهم : شدوه على جواده وسيروا بنا إلى ديارنا لنقتله هناك بين الأهل والعشيرة ، وما كادوا يفرحون بأسره ويهمون بالعودة حتى انكشفت لهم غبرة من بين الجبال عن فرسان كالعقبان يقدمهم عنترة بن شداد ، فسمع ابنه ينادى : أنا الغضبان بن عنترة ، كبا الجواد بى ، فاجتمعوا حولى وقيدونى ووقعت فى أسر لم يكن منه مفر ! فأطبق عنترة عليهم بجنوده ، وجعلوا يحصدونهم حصداً ولم ينج منهم إلا من انفلت من المعركة إلى الصحراء وقتل قائدهم ؛ وطلب المنهال الهرب فلحق به فارس عبسى وقتله ، وخلصت الأموال ودعد وأمها إلى عنترة الذى قرت عينه بنجاة ابنه ، وسأل الغضبان ابنة المنهال عن أبيها فقالت : طلب الهرب فأدركه فارس من عبس وقتله ، والتفتت إلى أمها

الباكية قائلة : جنى أبي على نفسه بما دبر وفعل ، فهل ترغبين أن تسيرى معنا إلى ديار بنى عبس ، أو تحبين أن ترجعى إلى قومك وعشيرتك ؟ فقالت : أنت مع السلامة ، أما أنا فإنى أحب أن أقضى البقية من حياتى بين أهلى وقومى ، فمنحها الغضبان خمسة عبيد وخمس جوار وعدداً من النوق والجمال وودعها إلى أهلها ، ورجع عنترة وجماعته إلى دياره ، وهناك أقاموا الولائم وزفت دعد إلى الغضبان ، وزادت هيبة عنترة بما رزق من الغضبان وغصوب وميسرة ، وصار له الأمر والنهى كأنه كسرى على عرشه.

٨

وذات يوم دخل عنترة على عبلة فى خبائها فوجدها عابسة حزينة ، فسألها عما أصابها فقالت : ما أصبت إلا بك ، وما أشعل نار الحزن فى قلبى إلا عملك ، وما رأيت زوجاً قاسياً مثلك، فقد ابتليتنى بكثرة الضرائر ، واتخذت لك زوجات من بنات الأكابر ، واستكبرت وطغيت ، ونسيت ما كنت فيه من رعى الجمال ونكد الحال ، فاذهب عنى فأنت مبعث شقوتى وبؤسى ، وظلمة الأيام فى عينى ، فتلقاها بابتسامة مشرقة وربت على ظهرها قائلا : ما زلت منية القلب ونعمة الفؤاد ، والتى استخلصها

لنفسه عنترة بن شداد ، ومن ذكرت من الزوجات لم ينقصن محبتى لك ، وقد أصبحن أمهات لأبنائى الفرسان ، فهل يرضيك طردهن على هذه الحال ؟ ! وجعل يسترضيها حتى رضيت وذهبت عنها شدة حزنها .

وفى صبيحة يوم شكا إليه العبيد قلة الكلأ وفقر الوعى ، فدعا إليه أخاه شيبوباً وسأله عن أرض غنية بمراعيها يرحلون إليها فقال : أعرف مكانين غنيين بالمراعى والمياه ، أحدهما أرض سحبل ، والآخر على مقربة منه يقال له أرض النعام ومرج الغراب ووادى الذئب ، فقال : سر أنت بالأموال إلى أرض سحبل واجعل الغضبان وغصوبا وميسرة حامية لها ، فخرج شيبوب وسار عنترة بما عندهم من خيل وأغنام ونوق وجمال ، ومعها رعاتها وكثير من الفرسان ، وعرج على أرض المثانى ببعض الأموال وهى أرض واسعة المراعى أيضاً .

كانت أرض سحبل فى حمى الملك الهيام ، ولما بلغه أن بنى عبس ضربوا خيامهم فيها وسرحوا خيلهم وأغنامهم و إبلهم فى مراعيها — جاءهم بجيوش كأنها البحر المتلاطم ، والموج المتراكم ، وقال لهم : ما كان لكم أن تنزلوا فى أرض لغيركم دون استئذان ، ويكفيينا فى العفو عنكم أن ترحلوا وتعودوا إلى دياركم أو أى مكان آخر وإلا تفعلوا تقع بيننا وبينكم حرب شديدة قاسية ، فأجابوه قائلين : أصابتنا سنة قل مطرها فأجدبت مراعينا ، فهجرنا الأوطان منتجعين ومن الظلم أن تحبس عنا هذه المراعى الواسعة

ولست فى حاجة إليها ونحن أحوج ما يكون إليها ، وليس بجائز أن نخرج من الحياة إلى الموت طائعين ، فنترك هذه المراعى إلى جدب الأرض وقفرها ، ولأن نموت بين يديك مدافعين خير من أن نموت هاربين ، واعلم بأنك هالك إن لجأت إلى القتال ، ولا يغرنك قلة عددنا فإن الفارس منا بألف من فرسانك ، إذ لا يستوي من يقاتل ليموت ومن يقاتل ليحيا ويغنم ، فارجع بجندك سالماً ، وإلا جعلنا من دمائكم أنهاراً ، فلم يستمع لهذه النصيحة وخاض حرباً كانت وبالا عليه وعلى جنده ، فقتل وقتل كثير من رجاله ومزق شمل جموعه .

وقال عروة للغضبان : هيا بنا إلى الرحيل من هذه المراعى قبل أن تجتمع علينا قبائل العرب ونحن قلة ، وليس لنا معصم يعصمنا ، فقال : لا تخف جموعاً وإن كثرت ، فلو أتانا من تظله السماء من العرب لأفنيتهم بسيفى ، فقال : ولكنك سترهقنا معك ، وإن قتل منا فارس فلا عوض له ، وكان قتله علينا خسراناً وحسرة ، وللأعداء غنماً وفرحة ، فقال الغضبان : سر بنا حيث تشاء ، فلا أريد إلا المرعى ويستوى عندى قاصيها ودانيها .

ورحلوا إلى جبال ثهلان وفيها ضربوا قبابهم واتخذوا منها معاصم كانت لعيالهم أمناً وحمى ، وعلم القوم الذين يجاورون هذه الجبال أن بنى عبس حطوا عن كواهلهم فيها عصا التسيار ومعهم أموال وأنعام فطمعوا فيها وجمعوا جموعهم لينهبوها ، وإن أفنوهم جميعهم دونها ، ناسين أنهم بذلك قوم عادون ،

ولكن من هؤلاء القوم الذين يطمع فيهم ؟ ومن هؤلاء القوم الذين ينامون على ضيم ؟ حاشا أن يكونوا أبناء عنترة الذين كمن الموت فى ذباب سيوفهم ، وأذن على أسنة رماحهم . لقد غر هؤلاء العرب كثرة عددهم ، وقلة جموع النازلين فى جبالهم ، فأداروا رحى حرب كانوا لها طحيناً ، فخسروا من فرسانهم كثيراً ، وولوا إلى بيوتهم فراراً ، وما غنموا إلا مهانة وخسراناً .

ورغب بنو عبس فى مغادرة هذا المكان لقلة مياهه ، فساروا إلى بلاد اليمن ، ولما أشرفوا عليها قال شيبوب : إن بين أيدينا وادياً غزير المياه واسع المراعى ، ولكن أحداً لم يستطع أن يدخله أو يجرؤ على الدنو منه ، لأن فيه ذئباً كأنه الأسد الهصور فى قوته وسطوته ، افترس كثيراً من الرعاة والأنعام ، وجعل الوادى محظوراً سلوكه على أى إنسان ، وسموه لذلك وادى الذئب ، فقال الغضبان : سيروا بنا إليه ، وعلىّ قتل هذا الذئب ليخلص هذا الوادى لمقامنا وتخلص مراعيه لأنعامنا ، ويكون لنا فضل تطهيره من المخاطر ، وتيسير سلوكه لكل عابر ، ونفخر به على العرب الذين أعجزهم الذئب وحرم عليهم دخول واديه ، وسنقيم فيه ما شئنا ، ثم نتركه متى أردنا .

وبان لهم الوادى فبان لهم ذئبه ، كاشراً عن أنيابه ، مبتسماً لفريسته ، متوثباً للفتك بمن تسول له نفسه اقتحام واديه ، ولكن الغضبان لم يمهله ، فأعجله بضربة من سيفه أطاحت رأسه ، وأتبعها بأخرى قصمت ظهره ، وضربوا خيامهم ، وسرحوا أنعامهم ، وطاب لهم المقام فى الوادى آمنين .

وذاع هذا النبأ فى بلاد اليمن ، وكان لليمنيين ثأر على بنى عبس من سالف الزمن ، فقال بعضهم لبعض : كيف نصبر على فئة قليلة غريبة تحتل أرضنا وتنعم بمراعينا ونحن أكثر منهم عدداً وأعظم قوة وأعز ناصراً ، وفيهم أبناء عنترة ولنا عليه ثأر قديم ، وقد أسعدنا القدر بقدومهم إلينا فى قلة ضعيفة ، وغربة موحشة ، وعزلة مخيفة . وغرتهم كثرتهم ، وأطمعهم امتلاك الوادى الذى كان قد حرمه الذئب عليهم ، وحفزتهم تلك الفرصة المواتية للثأر لأنفسهم ، فملئوا جوانب الوادى بفرسانهم ، يبغون قتل بنى عبس أو طردهم . فثارت ثائرة الغضبان وأخويه غصوب وميسرة واستعدوا للقتال ومن وراءهم بنو عبس يموجون عزماً وقوة ، ونادى مناد من أهل اليمن يدعى عنان بن سنان : ها أنا ذا قد برزت إليكم يا بنى عبس، فمن رام أن تثكله أمه فليبرز إلىّ ، فانطلق غصوب من بين الصفوف انطلاق السهم ، وطعنه برمحه طعنة أردته قتيلا ، فعز على فارس منهم يدعى مالك بن ضبيان أن يهزم قومه وهو فيهم وبرز طامعاً أن يقتل فرسان بنى عبس ، ولكن الغضبان أسرع إليه وقتله ثم انفلت إلى صفوف الأعداء فهدم بنيانهم، وأطار ألبابهم، وطردهم من الوادى فزعين أذلة ، ورجع بنو عبس إلى مضاربهم منصورين أعزة ، وجعلوا من أنفسهم حراساً على أفواه الطرق يتناولون الحراسة ليلا ونهاراً ، ولبثوا مدة وهم سالمون آمنون .

كان الأمير جعفر فارس بنى قحطان يحمل لعنترة فى نفسه كراهية



عنترة يطعن جعفراً لإنقاذ ابنه ميسرة ، وشيبوب ينظر إليه

وضغينة إذ قتل أخاه وابن عمه ، فهو يتربص به الدوائر ، ويود أن يقتله أو يغيظه ، فاستغاث المغلوبون من أهل اليمن به وقالوا : إن أبناء عنترة وفرسانه نزلوا بوادينا واستولوا على مراعينا ، وذهبنا إلى طردهم فسامونا قتلا وتشريداً ، فوجد جعفر الفرصة سانحة لشفاء صدره ، وذهب إليهم فى عدد من جنده ، وهناك فى الوادى بارز جعفر أبناء عنترة الثلاثة : غصوباً والغضبان وميسرة ، فلم يقدر واحد منهم أن يغلبه ، وأفلتوا من بين يديه مجروحين ، وباتوا على أحر من الجمر مبيتين عزمهم على محاربة جيش جعفر برمته وبقية الفرسان من بنى عبس يؤازرونهم ، وفى الصباح نشبت بينهما معركة حامية ، قتل فيها من جند جعفر كثير ، وباءوا بهزيمة لم يكونوا يتوقعونها ، وباتوا ليلتهم وقد أعلن فيهم جعفر أنه سيخرج غداً لمبارزة أبناء عنترة ، ليضعف جندهم بقتلهم أو أسرهم ؛ وفى الصباح جال جعفر فى الميدان منادياً من يريد مبارزته من أبناء عنترة ! فبرز إليه ميسرة قائلا : ها أنا ذا جئتك فدع الصياح بهذا النداء ، فلست لاقياً من ورائه إلا كل بلاء ، وما أنا بتاركك حتى يلقى أحدنا حتفه ، ثم اشتبكا وأبدى كل منهما من ضروب الكفاح والمبارزة ما أدهش الفرسان ، ولما أجهدهما العراك عرض عليه ميسرة أن يبعدا فى الصحراء عن أنظار القوم ، وهناك يفعل القدر بهما ما يشاء ، وفى معزل عن قومهما بدأت المبارزة ، وحمى وطيسها ، وطال زمنها ، حتى أحس ميسرة من نفسه تعبا

شديداً ، ولمح جعفر فارساً وراجلا مقبلين فى سرعة الريح وشدتها ، فقال لميسرة : ما شأن هذين الرجلين المقبلين علينا فى سرعة ؟ ! وظن ميسرة أنها حيلة أراد بها أن يلتفت ليأخذه على غرة ، فقال : صف هذين الرجلين ، فقال : أما الفارس فأسود اللون على جواد أدهم ، وأما الراجل فهو كالنعامة فى دقة الساقين وسرعة العدو ، وكالغزال فى خفته ونشاطه ، فقال ميسرة : خاب أملك وجاء أجلك ، فإن القادمين شيبوب عمى وعنترة أبى . وما أمهل عنترة جعفراً فقد ابتدره بطعنة من رمحه ألقته على الأرض قتيلا ، ونجا بهذا ميسرة على يد أبيه ، وتركوا جعفراً غارقاً فى دمائه ، وذهبوا إلى القوم فوجدوا القتال بين الفريقين على أشده ، والغضبان هائم فى أعدائه بسيفه ، فصاح عنترة فيهم صيحة خفت لها قلوبهم ، وجعل يحز بسيفه رقابهم ، وأدركوا من قدوم ميسرة وحده أنه قتل أميرهم جعفراً ، فاستيأسوا وأيقنوا أنهم هالكى إذا استمروا فى قتالهم فهربوا جزعين خائفين ، واطمأن بنو عبس فى مضاربهم هانئين ، ولكن كيف جاء عنترة ولما يرسل بنو عبس إليه أحداً .

* * *

كان عنترة بعد أن نزح أبناؤه إلى وادى سحبل يخرج مع العبيد لارتياد المراعى ، وذات يوم توغل فى البيداء حتى انتهى إلى مرعى أطلق فيه الدواب فى حراسة العبيد وجلس هو فى ظل شجرة قريبة من المرعى ، فأقبل عليه

ثلاثة رجال لا يحملون سلاحاً ، نفضتهم الصحراء عليه نفضا ، فأشفق عليهم ، وأطعمهم من طعامه وسقاهم من شرابه ، وعاب عليهم مشيهم فى الصحراء دون سلاح . ثم منحهم من عنده سلاحاً وودعهم إلى حيث يذهبون ، وعاد هو إلى مجلسه فى ظل شجرته ، ولبث غير قليل فرأى فرساناً يناهزون الخمسمائة يسرقون إبله وأنعامه غير عابئين برعاة عنترة وعبيده ، وأبوا أن يسألوهم عن أصحاب هذه الأموال أو غفلوا عن سؤالهم ، فلم يحرك عنترة ساكناً ، وتركهم يبعدون بها عن مراعيها ، ليلحق بهم وحده فى جوف الصحراء ويستردها بسيفه ، فلما بعدوا وظنوا أنهم قد سلموا بالأموال واطمأنوا ، انطلق من خلفهم ومعه أخوه شيبوب ، فلما أدركهم صاح فيهم : تلك جرأة خاسرة ، إذ تختطفون أموال عنترة ! فما كادوا يسمعون صوته حتى تفرقوا تاركين ما نهبوا من إبل وأنعام فتبسم عنترة ضاحكاً وقال : خسئتم من قوم جبناء ! ورجع بأمواله إلى مراعيه ، وجلس تحت شجرته التى تقيه حر الهجير ؛ فمر به رجل بدت عليه أمارات الخوف من عنترة ، فأحب أن يهدئ روعه ، ويمنحه شيئاً من ماله ، فأمر أخاه شيبوباً أن يأتيه به ، فقال له : كيف تخاف منا وما قدمت لنا شيئاً يستدعى غضبنا عليك ؟ ! فقال : الرجل الغريب الوحيد أسوأ الناس ظنا ، وأسرعهم خوفاً ، وأحذرهم عملا ، وأحبهم فى السلامة . فقال : لا تخف وما أنت إلا سالم مكرم ، ومن أين جئت ؟ فقال : من بلاد اليمن وقد نزل قوم بمراعيهم

وفيهم أبناء عنترة بن شداد ، فثاروا فى وجوههم ، وحصروهم بكثرة جنودهم ، وليس لهم من فرسان اليمن نجاة ولا سلامة . فأكرمه عنترة ومنحه عشرة من الإبل ، وأمر جريراً أخاه أن يرجع بالأموال والعبيد إلى الديار ، ووصاه بهذا الرجل خيراً ، ثم نهض مسرعاً إلى أبنائه وشيبوب أخوه معه ، فرحل إليهم وحطم أعداءهم

* * *

وسار عنترة وجماعته فى مسالك الصحراء يقتفون آثار المهزومين ، وإذا غبار يظهر أمامهم . ثم انكشف عن جيش يخب فى مشيه ويضع ، فقال عنترة : اذهب يا شيبوب واعرف لمن هذا الجيش ؟ فقال عرفته بمجرد رؤيته ، إنه لعفريت السواحل وسليك بن السلكة ، وكانا قد ضمنت مراعيهما وشحت ، فخرجا إلى وادى سحبل يبغيان مراعيه ، فلقيهما الهاربون من بنى مزينة الذين حاربهم عنترة وقومه فهزموهم وفروا أمامهم وأسر عنترة سعدى بنت ملكهم صعصعة الذى قتله الغضبان وشكوا إليهما ما أصابهم فأشفقا عليهم وقالا : سيروا معنا لنثأر لكم ، وبعثا جماعة منهم إلى الملك الهيام يستعدونه على بنى عبس ، ويخبرونه أنهم سبقوه إليهم ليشغلوهم بالقتال حتى يدركهم بجيشه ، واشتبك الفريقان يوماً كاملا ، ثم باتوا إلى الصباح ، وفى اليوم الثانى برز الغضبان

ونادى : هل من مبارز ؟ فجاءه سليك بن السلكة وجعلا يتبارزان يوماً إلا أقله حتى قتل سليك .

ولما قتل سليك بطعنة من الغضبان همت فلول بنو مزينة بالرحيل جزعاً ويأساً ، ولكن عفريت السواحل مناهم أن ينصرهم غداً ، فباتوا فى انتظار هذا النصر الموعود .

وبرز الغضبان فى الصباح قائلا : يا بنى مزينة ، ما بدأناكم بالشر والأذى ، ولكنكم خنتم وغدرتم فسلطنا عليكم سيوفنا ورماحنا ، وما نحن بتاركيكم حتى نقضى عليكم ، فابرزوا لتسيل أرواحكم على صفحات سيفى ، فبرز إليه ستون فارساً تباعاً ، وهو يقتلهم واحداً واحداً ، فقال بنو مزينة لعفريت السواحل : لقد كنا ،فى غنى عن هذه الخسارة اليوم ، وما منعنا من الرحيل إلا ما وعدتنا به من قتل بنى عبس ، ولكنك تركت هذا الشيطان يقتل رجالنا ، فقال : ما تركته إلا لأنى رأيت فرسانكم يتسابقون إليه فانتظرت حتى يلقوا حتفهم على يديه ، لتعلموا أنى سأقاتل بعدهم من لم تستطيعوا قهره والتغلب عليه ، فيعظم لديكم الفضل،وتقوى الشهرة . وفى الصباح برز إلى الغضبان وجعل يهدده بالكلام ويتوعده ، والغضبان لا يكاد يعبأ به ، ثم هجم عليه وجعل يصاوله ويداوره حتى غرز رمحه فى قلبه فخر على الأرض يتخبط فى دمه ، وضاع بفقده كل أمل لبنى مزينة ، وارتحلوا مسرعين . وكانت خيانة صعصعة سبباً فى قتله ومذلة

قومه ، وسمع عنترة سعدى بنت صعصعة تقول : حكم علىّ الزمان ! وسقانى كأس الهوان ! بعد العز والسيادة والأمان ! فقال : لولا خيانة أبيك ما قدمنا على بنى مزينة بسوء ، وقد زوجتك مطاوعا ، وكفلت لك الراحة والهناءة ، فلا ضير عليك وقد ذهب كل مذنب بذنبه ، ثم قال لأخيه شيبوب : خذ ابنك الخذروف إلى حيث هرب بنو مزينة وائتونا بأخبارهم فلست براجع حتى أنتهى منهم ، فجعلا يجوبان فى القفار ثم عادا فى آخر النهار ، وقال شيبوب لأخيه : يا عنترة ، إن بنى مزينة قد استعانوا بحلفائهم وقد أجمعوا أمرهم على سحقكم وهم الآن يرتقبونكم على رءوس الجبال وفى الوديان ، فقال : ولن أكون عنترة إن رحلت وتركتهم فى عافية .

* * *

وكان مع بنى مزينة هذه المرة جماعة منهم حنظلة بن زيد بن عرفجة ، وظالم بن عوسجة ، وصفوان بن مراد ، فلما التقى الجمعان نادى الغضبان قائلا : أيها المغرورون ، لقد خدعكم بنو مزينة ، وأحلوكم دار البلية ، ولن أبقى منكم اليوم بقية ، فبرز إليه الأمير جندح بن فهد وقال : ولقد جئتك لأسقيك كأس المنية ، فابتدره الغضبان وطعنه قائلا : خذها منى ساحقة ، فوقع غارقاً فى دمه ، وكذلك فعل الغضبان بظالم بن عوسجة ، فثار الأعداء يبغون اغتياله، وقامت حرب أكلت من فرسانهم كثيراً ، وخافوا إن دام مسيرها أن تقضى عليهم ففروا ، ثم قال عنترة لأخيه :

أظنهم بعد ذلك قد يئسوا وذلوا وما بقى واحد منهم يفكر فى حرب يخوضها أو نضال يجرى إليه ؟ فقال شيبوب : إنى أعلم أن عددهم كثير ، وربما أغرتهم كثرة عددهم أن يسعروا نارها وإن كنا قد كسرنا شوكتهم ، ولا تنس أنا قادمون على جبال بها قبيلة عامرة بالفرسان ، وقد يلجأ إليهم بنو مزينة ويطالبون معونتهم ، فلتكن على حذر منهم فأغلب الظن عندى أنهم ملاقوننا ومعترضون سبيلنا ، وصدق ظن شيبوب ، فلما أشرفوا على تلك الجبال وجدوا بنى مزينة وفرسان هذه القبيلة قد اجتمعوا متعاهدين مستعدين لقتال بنى عبس ، فعجب الغضبان وقال لأبيه : ما هؤلاء الناس الذين أهلكناهم وأهلكنا أشياعهم ولا يزالون يرمون أنفسهم أمام سيوفنا ورماحنا ! فقال عنترة : وماذا يضيرك ؟ ! إنهم مرضى وشفاؤهم فى سيوفنا ورماحنا ؛ ولسنا نبخل عليهم بما يشفيهم ، وزحفت الصفوف والتقت المئات بالألوف ، وكان يوماً عسيراً على بنى مزينة وحلفائهم ، فغابوا فى متاويه الصحراء هاربين نادمين ، وجمع بنو عبس الأسلاب والمغانم ، وقال عنترة : أظنك يا شيبوب قد أيقنت أن مزينة لم يبق فيها من يطلب حرباً ، فقال : لن ترى بعد ذلك منهم محارباً ، ثم جدوا فى المسير إلى ديارهم ، ولقيهم قيس وقومه فرحين مهنئين ، وانصرف كل مجاهد إلى أهله ، وعاشوا فى أمن وراحة لا يشنون غارة ولا يدفعون مغيرا .



عنترة جالس أمام خيمته وأمامه أعرابى يستعطفه

٩

وذات يوم كان عنترة جالساً بين أبنائه فجاءه أعرابى وقال : قصدتك مستجيراً مستنصراً ، فقال : وما حل باك أيها العربى الكريم ؟ فقال : دفعتنى الحاجة فخرجت فى طلب الرزق والكسب ، وقيضت لى نوق وجمال وجئت بها من بلاد بعيدة ، وقطعت السهل والوعر جاهداً مكدوداً حتى وصلت إلى هذه الديار ، فاعترضتنى ثلة من الفرسان وأخذوا منى ما غنمت من نوق وجمال ، وشكوت لهم حاجتى وفقرى وكثرة عيالى فما رقت قلوبهم لشكواى ، فقلت لهم : ربما رثى لحالى من أمراء العرب من يستطيع قتالكم وإنصافى منكم ، فقالوا ليس فى العرب من يجرؤ على قتالنا ، فقلت : ومن أنتم ؟ فقالوا : نحن رجال الملك عبد هياف الذى ترهب سطوته الملوك ، فتركتهم حزيناً وطفت على كل ملك أستغيث به فما وجدت أحداً تعنو له رقاب الفرسان إلا عنترة بن شداد ، فجئتك مستجيراً مستنصراً ، فقال : ومن أنت أيها العربى الكريم ؟ فقال عوف بن قائد النهرى طبيب قومى ، وأنا جارك ونسبى متصل بنسبك ، فقال : وكيف كانت الصلة بينى وبينك ؟ فقال : جزت يوماً على مراعيك ، وأراد عبيدك الماء فلم يجدوا معهم حبالا تكفيهم فقلت لهم : أتأذنون لى أن أصل حبلى بحبلكم وأسقى دوابى مع دوابكم ، فقالوا : نعم ، فجمعت إبلى إلى

إبلك ، ووصلت حبلى بحبلك وأخرجنا من البئر حاجتنا من الماء وسقينا الدواب ، وهذه صلة الحبل بينى وبينك ، وصلة الحبل بالحبل نسب ، فضحك عنترة وقال : قد أجرتك ورددت إليك إبلك ؛ وركب جواده ، وسار معه أبناؤه وعروة بن الورد وسبيع اليمن ، وجرير وشيبوب وابنه الخذروف ، فأدركوا ثلة الفرسان وكانت الشمس أوشكت أن تغيب ، فصاح فيهم عنترة أن يقفوا ويستمعوا لما يقول ، فقالوا : وماذا تريد منا أيها العربى ؟ ! فقال : ردوا النوق والجمال إلى صاحبها لتسلموا وتحقنوا دماءكم وإلا أخذتها رغم أنوفكم ، ولا ينفعكم ملككم ولا رجاله ، فقالوا : وهل تعرف ملكنا حتى تستصغر شأنه وشأننا ؟ فقال : ليكن ملككم من تشاءون ، فإن الذى يكلمكم عنترة بن شداد ، فقالوا : لعلك مجنون أو مسحور ، إن النوق والجمال وقعت فى يد رجال ملك أقوى منك بأساً وأعظم خطراً ، وهو ملك السند والهند ، وفى قبضة يمينه ألف قبيلة ، وأنت بطل مظفر مؤيد ، ومواقفك مشهورة لا تجحد ، ولكن ملكنا يفوقك بكثرة رجاله ، وما أنت إلا هالك إن استمسكت برأيك ، فقال عنترة : يا أخا العرب ، ما طلبت منك أن تصف لى ملكك وقوته وكثرة أعوانه ، ولكنى طلبت منك أن ترد النوق والجمال فأقصر عن الحديث واستجب لما دعوتك إليه ، فقالوا : إذا نحن رددنا الأموال وعلم ملكنا بحقيقة الحال جاءكم بجنود لا تحصونها عدا ، وكانت الدائرة عليك وعلى قومك ، ونرى

أن نذهب إلى قيس ملككم ليحكم بيننا وبينك ونحن راضون بحكمه ، فإن حكم برد النوق والجمال رددناها وليس فى صدورنا حرج مما قضى ، فقال عنترة : ردوا المال إلى صاحبه ليذهب به إلى شأنه ، ثم خاصمونى إلى من تشاءون ، فقالوا : لا كانت النوق ولا كانت الجمال ، ولا كانت هذه الساعة العصيبة والقضية الخطيرة ، فلا أنت بتارك الأموال حتى ترد إلى صاحبها الذى استجار بك وإن كانت فى حوزة قوم عاد وثمود ، وما نحن بقادرين على أن نردها خوفاً من مليكنا ، ولا نستطيع الآن أن نقاتلك لأننا أضعف منك فهل ترضى أن نسير بها إلى قاضى العرب وسادات قبائلكم للفصل بيننا وبينك ؟ فقال عنترة : إنه ما سمعتموه من قبل ، فردوا المال إلى صاحبه ليسير به إلى دياره ، وأنا معكم حيث تذهبون ، فإن كان المال لكم منحتكم من مالى عوضه ، وإن كان لصاحبه فقد أخذه ومضى .

وكان الأمر قد بلغ قيساً فأدرك خطورته وأرسل إلى عنترة رسولا يستدعيه ومعه خصومه ليحكم بينهم ، فقال عنترة لهم : لقد استدعانى الملك وأمرنى أن آخذكم معى إليه ليفصل بينى وبينكم ولا ينبغى أن أرد له أمراً فماذا تقولون ؟ فقالوا : سمعاً وطاعة ، وذلك ما كنا نبغى ، فقال عنترة : إنكم تقولون : إن ملككم عسافا يملك ألف قبيلة ، أما كان فى قبائله هذه ما يغنيه عن نهب أموال الفقراء ؟ لقد حقرتم بما فعلتم شأنه وصغرتم منزلته ، وجعلتموه شخصاً دنىء النفس فاقد الرجولة ، إذ يطمع فى قلة من نوق

وجمال لرجل فقير غنمها بيمينه وسعيه لتكون رزقاً له ولعياله ، وإذا كان ملككم على هذه الحال من الفقر والطمع ودناءة النفس وفقد الرجولة أفلا تكونون أنتم ذوى نخوة ومروءة ، فلا تطمعوا فى مال عابر سبيل فقير ، خسئتم وخسئ ملككم يا طغام القوم وحثالة الرجال ، لقد عرفتمونى السبيل إلى بلادكم وسأسقيكم بغزواتى شقوة الحياة ومرارة الموت ، ثم التفت إلى الأعرابى وقال له : خذ أموالك واذهب إلى سبيلك ولا تخش أحداً ، فتقدم الأعرابى وساق أمواله وهم لا يحركون ساكناً وذهب إلى سبيله ، فقالوا : سر بنا الآن إلى قيس ، فقال : تعالوا إليه ، وإن حكم لكم أعطيتكم من مالى عوضاً ، فجمعهم مجلس قيس وأجلس عنترة بجانبه وقال : ما غاظك من هؤلاء الغرباء ؟ فقال عنترة : لقد بلغتك الحقيقة وربما عرفت كل شىء عنها ، فقال قيس : هؤلاء سلبوا مال الأعرابى فما دخلك بينه وبينهم ؟ وما جعلك تدافع عنه وتكره فرسان ملك الهند والسند على رد الأموال إليه ؟ أليست الأموال خاضعة لعادة النهب والسلب وحمايتها على صاحبها ، فإما حماها بنفسه وقومه وإما حماها حليفه ومجيره ، وما صلتك بالأعرابى حتى تهتم له وتخرج إلى رد أمواله ، وتعرض البلاد إلى حرب دائمة بيننا وبين ملك الهند والسند وكلانا خاسر لا محالة . ولعلك أدركت الآن من كان مثار الخلاف ، فقال عنترة : إذا طلب إنسان حقاً من إنسان وأبى أن يؤديه فمن يكون مبعث الخلاف منهما ؟ أطالب الحق أم ذلك الذى

أبى أن يؤديه ! ؛ وسواء أكنت أنا مبعث الخلاف ومثيره أم هؤلاء السابلة فإن القضية ليس موضوعها من آثار الخلاف ، ولكن القضية موضوعها : هل من الحق رد الأموال المسلوبة إلى صاحبها أولا ؟ فقال قيس : ومن الذى يردها ؟ هذا رجل غريب عنا ، وهؤلاء عابرو سبيل ، ومن الإسراف أن تقحم نفسك بينهم وتخلق فتنة بيننا وبين الملوك . فقال عنترة : ما أقحمت نفسى بينهم ، ولكن رجلا صلته بى كصلة النسب نهبت أمواله فى أرضنا واستجار بى فأجرته فقال قيس : إن كان الرجل ذا صلة بك فحمايته حق ولكن من أين جاءت تلك الصلة ؟ فقال عنترة : امض يا شيبوب وأحضر الرجل ، ليسمع الملك قوله ، فلما حضر الرجل قص على قيس قصته وصلته بعنترة ، فالتفت قيس إلى رجال عساف وقال : إن عنترة حاميتنا ولا ننكر ما فعله حقاً كان أم باطلا ، ولكنكم أنتم غرباء ولا بد من إقناعكم ، ولهذا أرى أن تحال هذه القضية على قاضى العرب حتى يكون الحكم على إقناع وحجة بالغة وركبوا جميعاً وفيهم قيس إلى ثابت بن حسان قاضى العرب وهو من سادات بنى عدنان ، فنزل كل منهم عن جواده إلا عنترة فقد بقى ممتطياً جواده ، فقال خصومه : انزل يا عنترة واجلس معنا حتى يقضى بيننا ، فقال : الزمن قصير وليس فى القضية لجاج وتطويل ، وسأستمع للحكم فإن حقق ما أبغى وإلا فالحكم فى حد سيفى وسن رمحى أقضى بهما على كل قريب وبعيد ، فغاظ هذا القول

القاضى ولكنه لم يظهر غيظه ثم سأله عن القضية فقال : لى رجل ذو صلة بى كصلة النسب والجوار وهؤلاء نهبوا ماله ظلماً فأخذت المال ورددته إليه وانتهى الأمر ، ولكنهم رغبوا فى التقاضى فسايرتهم وحضرت معهم ، وما أنا بنازل لأحد عما فعلت ، فقال : وهل اعتديتم على صاحبه حقاً ؟ فقالوا : إنا وجدناه فى سبيلنا ، وما هو من قوم عنترة ، ولكنه اعتبره منهم بسبب اتصال حبليهما فى السقى ، فقال القاضى لعنترة : وأى شيء اعتبرت اتصال حبليكما والاشتراك فى السقى ؟ فقال عنترة : اعتبرتهما نسباً وجواراً ، وبعد هذا فقد استجار بى ، فقال القاضى : ليس فى العرب من يعتبر صلة الحبل بالحبل نسباً وجواراً ، ولهذا فإنى لا إخالك إلا معتدياً ، فقال عنترة : وما إخالك إلا قاضياً ضل رأيك وجار حكمك ، ونزلت على هوى فى نفسك ، فضحك قيس والتفت إلى القاضى قائلا : وماذا ترى بعد ما سمعت ؟ فطأطأ القاضى رأسه ولم ينطق ، والتفت عنترة إلى صاحب النوق والجمال وقال : امض إلى سبيلك ومعك نوقك وجمالك ، ثم التفت إلى القاضى وقال : إن الحكم بسيفى ورمحى وإن قالت العرب إنا تصال الحبل بالحبل لا يعد جواراً ونسباً فقد جعلته من الآن جواراً ونسباً ، ومن اعترض أو أبى ضربت عنقه ، فهاج الحاضرون وماجوا ، فقال القاضى : التزموا السكون فإن عنترة لا يرد له قول ، فهو حاميتنا وناصرنا وصاحب المعروف لدينا ، ولقد أراد بموقفه هذا إنفاذ كلمته على البدو والحضر وتلك سنة



القاضى ثابت بن حسان فى مجلس القضاء وحوله ناس من الهند ومن فرسان بنى عبس وعنترة يناقشه فى حدة .

حميدة وإنى أشهدكم أنى قضيت بسنته وحفظت حرمته ، وأما أنتم يا رجال الهند والسند فلكم من مالى عوض عن النوق والجمال ولا تثيروا فتنة ولا تضرموا نار حرب بيننا وبينكم فليس من ورائها إلا ظلم العباد وخراب البلاد ، فرضى رجال الهند بما قضى به حاكم العرب وقاضيهم ورجع عنترة عزيز الجانب وانفض مجلس القضاء ، وكان صاحب النوق والجمال لا يزال حاضراً فسأله عنترة : هل لك حاجة أقضيها بعد ذلك ؟ فقال : حاجتى أن تسلم ويدوم عزك ، فقال : أنت فى حمايتى حتى تبلى عظامى ، وخذ هذه المغفرة معك لتظهرها لكل من يريدك بسوء فإنها تحميك وتحمى قبيلتك وذويك ، فقال قيس : وهل تحميه من الموت ؟ فقال : الموت محتوم ولا راد له ، ولكنى أكفل عياله من بعده حتى لا يشعروا بفقده ، ولن أسكت عن ثأر له بعد موته ، فعجب العرب لهذا النبل الكريم وقال قيس : هنئت بسجاياك الكريمة وهنئ قومك بك .

وكان الربيع وعمارة أخوه جالسين يسمعان كل ما يجرى من الحديث فأسر عمارة إلى أخيه : ما هذا الذى تراه من مواتاة الأيام لعنترة وا طراد سموه ورفعته ، والتفاف الناس حوله وسماعهم لكلمته ، فقال الربيع : هذه الحادثة بدء النهاية لحياته فإن عسافا لا يسكت على ضيم ، وسيأتى هو وصديقه الملك الأخضر فيقضيان على عنترة وأبنائه ، وسترى أن نجمه فى

أفول ، وأن حياته إلى زوال ، وعما قريب ترى ذلك رأى العين ، فارتقب محو آثاره فى أقرب حين .

* * *

وكان عساف هذا من أبوين ملكين : طلعة ملكة السند ، وعبد هبل ملك الهند ؛ وكانت بين الملكين معارك حربية مستمرة ، فلا يسكت كل منهما عن صاحبه ، فهو مغير مرة ، ومغار عليه مرة أخرى ودامت هذه الحال سنوات ، وذات مرة كانت جيوشهما على أهبة القتال ، فاخترقت الملكة صفوف الملك بجوادها حتى كانت قدام الملك ، فوجدها وردية اللون ، ساحرة العينين ، فاتنة القوام ، جريئة القلب ثابتة الجنان ، ولما عرفته بنفسها قالت له : لقد طال أمد الحرب بينى وبينك ولا نجنى منها إلا نقصا فى الأموال والأنفس ، وليس لهؤلاء الفرسان المقاتلين ذنب فيها إلا طاعتهم وائتمارهم بأمرنا ، وأرى من الحق أن نريح الجنود ونعفيهم من بأسائها وعذابها وأن تبارزنى على أن يكون الحكم لمن غلب منا ، فماذا ترى ؟ فأعجب بجمالها وثبات فؤادها ، وأحس من نفسه محبة لها ، فابتسم قائلا : وكيف تخترقين صفوف أعدائك وتخوضين غمرات الموت بين بريق السيوف ولو كنت خائناً الآن لأوثقت كتاف يديك وصببت عليك ما شئت من ألوان العذاب أو مزقتك إرباً ، ولكنى أحب لك الحياة ، وأحب أن تجعلى المكاتبة سفيراً بينى وبينك حتى يتهيأ لنا اللقاء على خير حال نبتغيها وتطمئن

قلوبنا إليها ، فقالت : ما أوجست منك خيفة ، فإن لى من قوة النفس وشدة البأس ومطالبتى بالحق والعدل ما يجعلنى أخوض أضعاف هذه الصفوف غير خائفة ، ولا أجد فى مكاتبتى لك إلا مضيعة للوقت وحبساً للجنود فى هذا القفر على غير طائل ، فإن أردت العدل والإنصاف فابرز إلىّ ومن غلب فله أن يحكم بما يشاء ، وعلى المغلوب الطاعة والوفاء ، فقال لك ذلك وموعدنا صبيحة الغد .

والتقيا فى الصباح على جوادين أدهمين يكادان يخرجان من إهابهما قوة ونشاطاً وسرعة ، واشتبك الملكان ، واختلط الجولان ، واحتدم الخفقان ، وأرهق الجوادان ، ولكن أحدهما لم ينل من الآخر نيلا . واضطرهما الكر والفر إلى أن يغيبا عن الأعين فى الصحراء ، وكان الليل قد أرخى عليهما سدوله ، والنضال بينهما لا يزال على أشده ، فأشارت إليه قائلة : لقد كل الجوادان ، ومن العدل أن نريحهما .فهل لك رغبة فى المصارعة ؟ فقال : إنها أحب شىء إلى نفسى الآن ، ثم هجم عليها وأمسكها وألقى بنفسه عليها فوقعت على الأرض وهو من فوقها ، وهم أن يوثق كتافها . فقالت له : لا تتعب نفسك وتتعبنى معك ، فقد سلمت نفسى ولك أن تحكم فىّ الآن بما ترى ، فقال : الحكم يضيق به صدرى ولا يكاد ينطلق به لسانى ، فقالت : ما دمتُ قد رضيتُ وعقدت العزم على الوفاء فلك أن تقول ما تشاء ، فقال : أريدك زوجة لى ، فقالت : وما فى ذلك ضير علىّ فلست

إلا ملكاً مثلى ولا تقل شأناً عنى ، ثم رجعا وانصرف كلّ بجيوشه إلى بلاده بعد أن أعلن فيهم السلام والوئام ورابطة الزواج ، ثم ولدت ولداً وسمته عبد هياف ، وأرسلت إلى أبيه عبد هبل من يبشره بابنه، فكان لهذه البشرى وقعها الجميل فى نفسه ، ومنح البشير منحة سنية ، وأرسل معه إليه وإلى زوجته الهدايا الفاخرة ، وبعد أيام دفعه الشوق إلى رؤيتهما ، فحمل معه من الأموال ما ينبغى للملك أن يجود به للملكة هى زوجته وأم ولده ، وكان عندها فى قصرها ، فلما رأى ابنه أسود اللون قال : ما باله أسود الأديم وليس فى لون أبويه أثر من سواد ، ؟ ! فقالت : هكذا خلقه الله ، ولكنه فى صورته وخلقه كأنه أنت ، فقال : ومن يدرى ؟ لعل فى آبائنا الأولين من كان فى لونه هذا ، ثم عنيا بتربيته وتنشئته على الفروسية والشجاعة حتى كان فارساً لا يشق له غبار ، كما نشأ محباً للعدل مغرماً بالكرم ، وورث ملك أبويه ، فأصبح منيع الجانب عظيم الحول والطول ذا ملك ممدود وجيش لا يحصى عدا ، وهابته الملوك وخشى سطوته الأمراء، وكان يجاوره الملك الأخضر وهو ملك قوى بجيشه وبما يحكمه من القبائل ، فعقد معه حلف إخاء وصداقة وتعاون فزاد بذلك كل منهما قوة على قوة .

* * *

أراد عبد هياف أن يزور البيت الحرام فأنفذ سرية تأتيه بأخبار مكة والحجاز ، فعثرت فى طريقها على ذلك الفقير الذى أجاره عنترة وردّ إليه

نوقه وجماله، وكان من أمرها ما قصصته، ولما رجعت السرية إلى ملكها حدثوه بما فعل عنترة بهم فقال : لا بد أن يكون عبد بنى عبس أصابه مس من الجنون والعته ، أو يكون قد جهل قدرى أو حقر شأنى ، ولعله لو عرفنى ما جرؤ على أن يفعل بكم ما فعل ، ثم أحضر أخاً له من أبيه يسمى المرهف وقال له : اركب فى مائة فارس إلى أرض الحجاز وأنذر أهله الويل والثبور ، إن لم يردوا النوق والجمال أضعافاً مضاعفة ، وبلغهم أنى فرضت عليهم دفع الجزية كل عام ، ومن لج وامتنع لقى جزاءه يوم الفزع .

وصل المرهف وفرسانه إلى ديار بنى عبس ، فلبثوا خارج الأحياء ينتظرون من يقبل عليهم أو يسأل عنهم ، فلم يذهب إليهم أحد ، ولم يقيموا لهم وزناً ، فقال فى نفسه : لعل القوم لا يعرفوننا فأغفلوا وجودنا وأهملوا طلعتنا ، ومن الصواب أن أعرفهم بنا ، فأرسل إلى عنترة رسولا ، فوقف أمام بيته ، فعجب شيبوب وأنكره ، ودخل إلى أخيه وقال له : ببابك يا أخى رجل غريب فى شكله وزيه ولا إخالك تعرفه ، فقال : أحضره بين يدىّ لنعرفه ونعرف حاجته ، فقد يكون مستجيراً بنا طالباً إنصافه ممن ظلمه ، واحذر أن يجد منك ما يخيفه ويزعجه ، فلما كان قدامه قال : وصل إليك رسول عبد هياف ملك الهند والسند ، فقال : أهلا وسهلا وعلى الرحب والسعة ، اذهب إليه وائتنى به وعد أنت فى صحبته ،

فتجمل المرهف ولبس أحسن ما عنده من ثياب وجاء إلى عنترة ومعه فرسانه المائة ، وكان قد حضر إليه عروة بن الورد وأبناؤه الغضبان وغصوب وميسرة ، وأعلمهم شيبوب بالقصة فجلسوا ينتظرون وما لبثوا غير ساعة حتى جاءهم الرسول وفرسانه ، فأجلسهم وأكرمهم ثم سأل الرسول عن نفسه وعن الغرض الذى جاء فيه، فقال : أنا المرهف أخو الملك عبد هياف ذى الحول والطول والقوة والجبروت ورسوله إليك ، لتدفع الجزية وترد ما أخذت من نوق وجمال كانت مع سريته ، وأنصح لك أن تنظر فى العواقب ، وإلا كنت شؤماً على أهلك وقومك ، فى يمين أخى وحليفه الملك الأخضر من الجنود ما يسحقان به العرب وإن كانوا عدد الرمال ، وقد بعثنى إليك نذيراً ، فإن أطعت وإلا كانت دماؤكم لأبدانكم حصيراً ، فغضب عنترة وقال : أخوك هذا عندى أذل من عير الحى وأحقر ، وإن كان معه الملك الأبيض والأسود والأخضر والأصفر ، أتطلب منا جزية وأموال الملوك لنا ، نستخلصها من دمائهم بسيوفنا ؟ ! أتهددنا بأخيك وهو أقل شأناً فى نظرنا من قلامة ظفر لعبد من عبيدنا ؟ ! وحضر الملك قيس وهو فى ثورته فلما استقبلوه وأخذ مجلسه قص عليه عنترة ما جاء به رسول الملك عبد هياف وقال له: ما رأيك فيما سمعت ؟ فحارفى أمره وقال: تلك مشكلة خطيرة، فما رأيك أنت يا عنترة ؟ فقال : ليس له عندى إلا الحسام ، وأن أصبغ بدمه ودم أنصاره وجه الأرض ، وقال الغضبان : وكيف سكتنا عن هذا الملك

العتل الجبان ؟ لا بد أن نجعل دياره عشاشاً للبوم والغربان ، فقال المرهف : إنك عبد وصبى ، وجاهل من غير وعى ، فاترك القول لقادتك ، ولا تقحم نفسك فى أمر لسادتك ، فجرد الغضبان سيفه وضربه ضربة فرق بها بين رأسه وجسمه ، فاستراح عنترة ، وأخذ المقتول وربطه على فرسه وقال لأصحابه ، خذوا هذا رسالة من عنترة بن شداد إلى ملككم وبلغوه أن يجمع جنده وجند حلفائه ليلتقى بنا فى معركة حاسمة ، إن كان ذا نخوة وحمية ، وإن هو قبع فى كسر داره وانزوى خائفاً فإنى سائر إليه بجنود لا قبل لكم بلقائها ، لأجعل منكم عبرة وذكرى .

وكانت صدمة نفسية فزع لها عبد هياف واضطرب ، إذ دخلوا عليه بأخيه مقتولا ، وقصوا عليه فى حذر ما أمروا بتبليغه ، فدعا وزراءه وشاورهم فى أمره هذا وما ينبغى أن يفعله ، فقالوا : ما نظن بنى عبس إلا قلة ضعيفة ، فابعث إليهم سرية من جندك ، لتسوق ساداتهم وكبراءهم أذلة صاغرين ، فقال : لا بد من خروجى إليهم حتى أجعلهم مدى الدهر حديث البادى والحاضر ، ولا ضير أن يقتل أخى وغيره من أهل بيتى ، فما قتل وله بقية من العمر ، وكلنا إلى هذا المصير سائر ، ثم كتب إلى الملك الأخضر يقول : من عبد هياف ملك الهند والسند إلى صديقه الملك الأخضر ، أما بعد فقد طمع فينا بنو عبس ، واعتدى علينا عبيدهم بالأمس فقتلوا أخى ونهبوا مال سريتى ، وأنذرونا الحرب والقتال ، وقد رأيت أن أسير إليهم بجيوش

لا تغلب ، فاحضر إلينا بجندك لنؤدبهم وننتقم منهم ونزور البيت الحرام ثم نرجع غانمين ، وبعث به رسولا ومعه الهدايا من نوق وجمال وأموال طائلة من ذهب وفضة ، فجمع الملك الأخضر كبار عشيرته وقرأ عليهم كتاب صديقه عبد هياف ، وقال لهم : ماذا ترون ؟ فقالوا : رأينا أن نلبى الدعوة وتكون أنت وصديقك يداً واحدة ، وليس فى خروجك معه مخافة ، لأن جيوشكم تقهر قبائل العرب مجتمعة ، وستعودون غالبين غانمين ، ثم عاد الرسول يحمل إلى مليكه نبأ قدوم الملك الأخضر فى جيش عظيم .

* * *

وصل نبأ تحرك هذه الجيوش إلى بنى عبس ، ففرح الربيع بن زياد وأخوه عمارة ومن على مذهبهما من العشيرة ، وأيقنوا أن عنترة وأبناءه غير ناجين وأنهم لا محالة من الهالكين ، أما عنترة فإنه جمع أبناءه ورجاله وشاورهم فى أمر هذا الملك القادم اليهم ، فقال الغضبان : لا يهمنا كثرة جيوشه ، وسألحقه بأخيه إن شاء الله ، وإن ضن علينا بنو عبس بمؤازرتهم لنا فلن أترك لهم رأساً على بدن ، وإن كان قيس معهم فأول دم يجرى على صفحات سيفى دمه ، وما نحن بحاجة إلى معونتهم ولا حق لهم علينا فى طاعتهم وحمايتهم ، فقال أبوه : لا تنس أنه ابن زهير وأخوه مالك الذى كنت أحب الناس إليه ، فقال : لا أعرف شجاعاً نبيلا يذل لجبان لا مروءة له ، والسيف كفيل بإعزاز صاحبه وجعله فى المنزلة اللائقة به ، وإنما يعرف

الفضل من الناس ذووه ، فأدرك أبوه أنه فى ثورة غاضبة فلاطفه وهاواه ليخفف من غضبته ؛ ثم نهض عنترة وذهب إلى قيس فى مجاسه ، وأخبره أن عبد هياف والملك الأخضر قادمان فى جيوش تسد الأفق للقضاء على بنى عبس وقتل عنترة وأبنائه ، ثم قال : وقد عولت على لقائهم وقتالهم ، ولا أكره أحداً منكم على مشاركتنا ومؤازرتنا ، وإن أبطأ علينا هذا الملك بجنوده فسأخرج إلى ملاقاته فى طريقه إلينا ، فقال قيس : نحن معك أينما أردت وأرواحنا بين يديك ، فنحن لا ننسى فضلك علينا ، ودفاعك عنا واستماتتك فى سبيل إعزازنا ، ولأن نموت معك كراماً خير من أن نتقاعد ونتخلف فى لؤم ومذلة وخوف ، وأرى أن تبعث شيبوبا وابنه الخذروف لمعرفة أخبار هذا الجيش القادم ، فقال : أنفذتهم منذ مدة ، وقد طالت مدة غيبتهم ، وسأخرج من خلفهم لأعرف سبب إبطائهم ، فقال قيس : ونحن معك أينما سرت وإن سقتنا إلى الموت . وقال الغضبان : وما لنا لا نسير إليه لنلقى ما قدر لنا من موت أو حياة ؟ إن الآجال مقدورة ، ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها ، ومن مد فى أجله فلن تنال منه السيوف والأسنة ، والخلود مقرون بالأعمال الحميدة ، والموت فى سبيلها حياة ، والمرء فان ولكن آثاره باقية ، ومن عاش فى فزع وخوف فليس بحى ؛ فلما رآه عنترة مندفعاً محتداً قال له : مانطقت إلا بالحق ، وما ينبغى لنا أن ننتظر ، فهيا بنا .

وجاءهم وهم يتأهبون شيبوب وابنه الخذروف ، فقال شيبوب : هاتوا

لنا طعاماً لنأكل ثم نتحدث إليكم بما وجدنا ، ولما طعما وشربا أخذهما عنترة إلى قيس فقال شيبوب : انسللنا إلى الأعداء فوجدنا عبد هياف والملك الأخضر قادمين فى جيوش تملأ البقاع ، ويبلغ عددهم فى رأينا أربعمائة ألف فارس ، وكلما مروا بقبيلة أو مدينة أمدتهم بجنودها ، ولقد بلغ من شجاعة عبد هياف أن قتل بسيفه غولة اعترضت جيشه ، وقد رأيت ذا الحمار وهانئ بن مسعود محبوسين معهم فى قيود الأسر ، ثم أخذنا هذين الجوادين وجئنا على متن الريح ، وهما للملك منا هدية ، فقال : هما منى لابنى أخيك غصوب والغضبان ، وقال عنترة : ونحن الآن عزمة لا تسعها قدرة وكثرة لا تحدها غاية ؛ فقد جاءنا يؤازرنا روضة بن منيع فى ألف فارس ، وزيد الخيل فى أربعة آلاف ، وعامر بن الطفيل فى عدد مثل عدده ، ودريد بن الصمة فى عشرة آلاف ، وبسطام بن قيس فى فرسان بنى شيبان ؛ والحارث الغسانى بأربعة آلاف ، وأمدتنا كل قبيلة بفرسانها ، وجميعهم يرومون القتال ، وقد طمسوا الطريق من ورائهم حتى لا يرجعوا ، وقد خلفنا أخاك الحارث فى الأحياء ومعه ألف فارس ، وسأريكم كيف أنتزع من هذا الملك شموخه وسيادته . وغروره واستكباره . سارت الجيوش كلها حتى التقت بالجواسيس الذين أوفدهم عنترة لينقلوا إليه ما يهمهم من أمر العدو الزاحف ، فسألهم عنترة عما عرفوه من قصة ذى الحمار وهانئ بن مسعود حتى وقعا فى أسر الملك عبد هياف ، فقالوا : لم يفتنا السؤال عنهما ،

فقيل لنا : إن هانئ بن مسعود بعد أن شفى من جرحه الذى أصابه به ذو الحمار فى مكة إبان الثورة التى قامت حول تعليق عنترة معلقته على الكعبة جعل يطلب ذا الحمار حيث هو مقيم إلى أن وجده على ماء ومعه من بنى عمه خمسون فارساً ، فناداه هانئ : ابرز يا ذا الحمار إلىّ ، فما كنت بغافل عنك ، ما أنا بتارك ثأرى منك إن هربت منى فوق السحاب وأنت الآن ملاق حسابك على خيانتك وغدرك . فتلاطف ذو الحمار وقال : ما كنت أريدك بسوء ، ولكن عنترة العبد ، أضاع منى كل صواب ورشد فهام السيف فى يدى ونلت به الأقرب والأبعد عن غير قصد ، فقال : لا يزال الحقد على عنترة يعبث بعقلك وهو الذى وهب لك الحياة وفك رقبتك دونك والقتال أو المبارزة ثم وقعا فى عراك شديد ، وأقبل جيش عبد هياف وهما يتبارزان فانقض عليهما وعلى جماعتهما ، وشبت بينهما معركة أكلت فرسانهما أما هانئ وذو الحمار فقد قتلا خلقاً كثيراً ، ولكنهم تغلبوا عليهما بكثرتهم بعد جهد جهيد ، وقيدوهما فى سلاسل من حديد ، وطلب الملك الأخضر أحدهما أسيراً عنده فقال عبد هياف : خذهما واحرص على ألا يجمعهما مكان واحد حتى لا يقتتلا ، فبينهما ثأر وعداوة ، ثم وكل الملك الأخضر أمر حراستهما إلى جماعة أشداء من عبيده .

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر